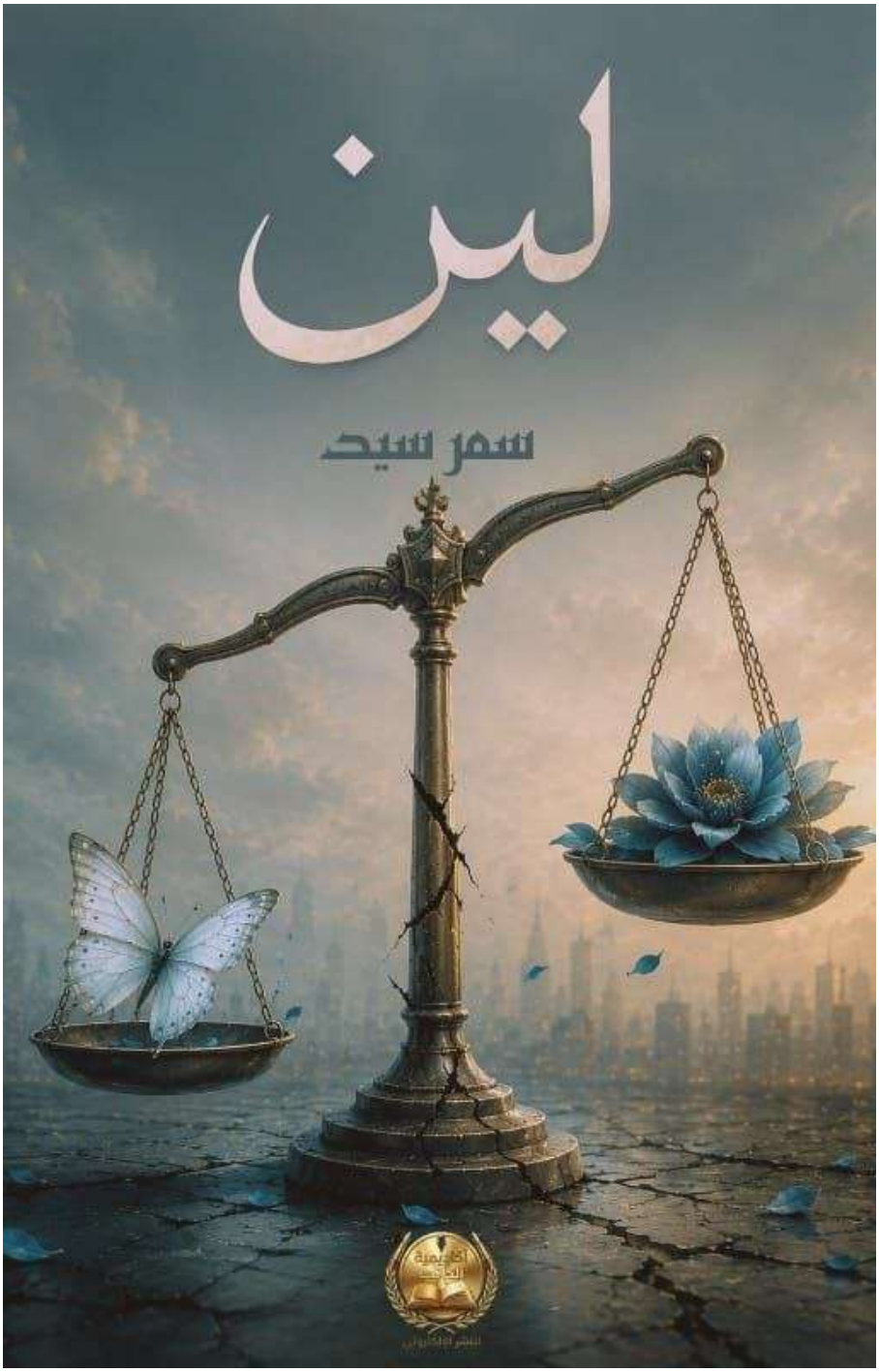
لين
سمر سيد

لـــــيـــــن

رواية

تأليف

سمر سيد

عنوان الكتاب: لين

الموضوع: روايـــــة

تأليف: سمر سيد

تدقيق لغوي: محمد حسن

تصميم غلاف: عائشة عمارة

رقم الإيداع بالدار : 2026/0542

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-48-1-260518

الناشر:

أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

alkatebacademyforpublishing@gmail.com

01146008250

مصر

حيـــــــاة روح

رواية

عائشة عمارة

٢٠٢٦

دار أكاديمية الإبداع للنشر الإلكتروني

لماذا نكتب؟

نكتب كي نسيطر على فيضان مشاعرنا، فننقذ أنفسنا من الغرق. كي نُرسل العناق، كي نلتحم، وإن بات الليل هناك والشمس هنا.

نكتب كي نخبر أنفسنا عن أشياءٍ لا يعرفها أحدٌ سوى أنفسنا. وليتحول العدم إلى حقيقة؛ نقابل فيها أنفسنا الضائعة.

نكتب لأننا نجد في الكلمات مدارات تدركنا وندركها، نصيغ بها ما نهض فينا من مشاعر وأفكار؛ فيصيروا أقوام أخرى موجودة حولنا ولا نراها.

***

هذي الحياة هي السلام

"في الفجر، في نهر الضياء الثرّ، في شرف المقام... والليل يأذن بالرحيل يبعثر الخطوات يترك خلفه خيط الظلام؛ حطت على الشرفات أسراب الحمام... الله يأذن بالحياة لها على درج الهيام... والليل حين تَحُطُّ يأخذ نفسه ويكف عن بعض الملام... والفجر يبدأ بالكلام... هذي الحياة جميلة رقراقة لو أنها سلمت من الشر الذي يكتظ في روح الأنام... هذي الحياة تكونت من سر خالقها ومن طُهر الغمام... هذي الحياة هي السلام".

د.أيمن العتوم

***

"في الخيال، أجد الأمان الذي لم يمنحني إياه العالم."

- الشاعرة الأمريكية. سيلفيا بلاث

لذلك سُميت لين

قصة كان من الممكن أن تموت؛ ولكن بالكتابة تأبى الحكايات أن تموت، قصة فرّت من الواقع لتكون بين خيال الروايات، ولا أتمنى أن تفر من عالم الروايات لتعود لموطنها الأصلي. إن العمر مثل عنقود العنب الذي تتدلّى منه الكرات جميلة الشكل والمذاق، ولكنه سريعاً ما ينفرط، ولا يتبقى منه سوى أغصانه الخشبية التي لا طعم لها ولا شكل. ولكن بالكتابة يُبقي الشاب على شبابه؛ وإن جرفته الأيام نحو الشيخوخة والكبر؛ فإن أراد الكهل أن يرى شبابه مرة أخرى، فليعدْ مطمئناً إلى الصفحات؛ فكل شيء كما هو. ولنعلم أننا إن بنينا العلاقات باتفاق ضمني بصنع ذكريات سعيدة، فلن يكون هناك ندم أبداً. وإن يولد لديك قلب جديد، فذلك بمثابة ولادتك أنت نفسك من جديد بتقويم آخر، لا يعرف عنه أحد سواك. أكتب الآن بتوقيتي وبشخصي الجديد، كي أترك فكرة إن فُعّلت وتحوّلت إلى ما هو أكثر من مجرد فكرة؛ لكانت الجنة أسهل والحياة أجمل. أكتب وأنا مؤمنة بأن حياة كل إنسان منا ما هي إلا فرصة، ولكل عصر فرصه الضائعة، وعندما نعود للعصور الماضية نجد أن وراء كل فرصة ضائعة، ودماء مُسالة، وروح اقْتُلعت من جسدها قسوة غاشمة لا تعرف الرحمة، وأن كل فرصة أثمرت رطباً جنيا فبقى أثرها الجميل وراءها قلب رحيم. فماذا لو بات كل منا بقلب رحيم؟! يروي كل

موقف وكل رأي له بالرحمة حتى نرى عصوراً جديدة وقد تطورت فيها الإنسانية للمسار الذي يليق بها. أحداث حياتية كثيرة لم يُحط بها الخيال من كل جانب بل أحاط بها الواقع وشد عليها الخناق؛ فقسى عليها حتى رحلت إلى الخيال لتستشعر اللين الذي زال؛ فافتقدته، ثم عادت للواقع مطالبة بمطلب واحد قادر على أن يجعل الحياة في الواقع وفي الخيال نسيجاً واحداً، عادت مطالبة بأن تنضح القلوب باللين؛ لذلك سُميت لين.

***

الإهداء

كنت أتمنى أن أكتب إهداء جلي يُطيح بأبعاد الكتابة؛ ليليق بذلك الطيف الرقيق الذي أوحىَ لخاطري بالفكرة. والذي جعلني أدعو لغيري بأن يكون بحياته طيفاً مثله. ولكنه مجرد طيف؛ فكيف لي أن أكتب له إهداء؟! وإن كان لي ذلك لأهديته كل ما لديّ وكل ما أستطيع.

إهداء آخر

إهداء إلى كل كاتب عرف ما يحتاجه غيره فاستغل موهبته في إعطاءه.

د. أحمد خالد توفيق

تنويه

جميع شخصيات الرواية من صنع الخيال وإن تشابهت مع من يعيشون في الواقع، فذلك بالشيء العادي لأننا في الحياة بين قطبي الخير والشر كما نعلم. فهناك من يرقص على أنينه كي يستطيع أن يُكمل رحلته وهناك من يرقص على أنين الآخرين.

المقدمة وأمور أخرى

إن دقات الساعة تشكل ذكريات كثيرة، وأحلاماً بعيدة، فما الحال إن كانت الذكريات مليئة بالندم والحلم كابوساً أو مستحيلاً؟! وماذا لو كانت الذكريات جميلة والحلم بذرة ننتظر أن تُثمر؟!

لدى الأرض حلم بامتداد الدفء حول الإنسان، امتداد بسيط ولكنه موجود رغم البرودة، تحلم الارض بأن تتزين الحياة بتآلف النفوس مع بعضها، وبلين القلوب وحنانها، حتى تُشرق الشمس بفرحة، وتغرب مطمئنة. حلم يأبى أن يتحقق، وربما لن يتحقق أبداً. فكم ننادي على بعضنا البعض بأسماء توحي بالود. ومَّنّ سَمِعَنا تيقن مِن أننا أحبّة وسط دوائر من الزهور، ولكنه في حقيقة الأمر لا يوجد سوى العبوس والتذمر والأنانية والعنف الجسدي والمعنوي. ويبدو أن هذا هو المسار الحتمي لتلك الحياة، حتى ولو بذرنا العطف في كل سلام، وفي كل تعارف، وكل حديث يُقال. فلن يتحقق حلم الأرض أبداً، ولن تكون الحياة مثل ما تمناها بطلنا. ولكن دعونا نحلم بيوم يأتي على الأرض ننادي فيه على بعضنا البعض بما تحمله مشاعرنا الرقيقة، وأفكارنا المرهفة؛ فلا يكون حروب أبداً ولا نزاع، ولا بغض ولا تآمر أبداً. وبالرغم من أن للحب حرفان؛ إلا أن بجعبته الكثير؛ فلماذا نحرم أنفسنا مما لديه؟! ولو علم الإنسان أن بالحب حياة أخرى ببواطن كل أمر أحاط به، لسعى إليه سعياً.

جميعنا خلق الله؛ الإنسان الذي خُلق من طين ثم سُيّر لما خُلق له، الإنسان الذي توعده الشيطان أن يجعل نهايته في الجحيم؛ حتى لا يَلقى هذا الشيطان البغيض الجحيم وحده.

ولعلمِنا بأصل الحكاية ولإدراكنا حقيقة الأمر؛ وهو أننا قد ابتعدنا عما خُلقنا له، ولاقترابنا من السقوط في الجحيم الذي خُصص للشيطان فلن يكون وحده، وأننا سنكون بصحبته، كُتبت هذه الفكرة أو هذا التخيل، ربما ينتبه واحد فقط من البشر أو اثنين أو جميعهم إلى أنه قد ابتعد عن أصله؛ فيعود، ويتذكر هبوط البشر من الجنة؛ فينقذ نفسه من هبوط آخر نحو الجحيم.

"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (103)، آل عمران.

إن الإنسان على شفا حفرة من النار، ولن ينقذه منها سوى التآلف بيننا البعض، ولا أقول لنتعظ فقط، ولكن لننتبه أن للجوارح بداخلنا كلام تريد أن تقوله؛ فلننصت له باهتمام، ولا ندع أنفسنا تنصت فقط للجانب الضعيف بنا، والذي يقوى عليه الشيطان؛ فيتحكم فينا من خلاله.

رسالة تأخرت، أو مُنعت من أن يُسمع صداها من قبل، ولكنها الآن كُتبت؛ فعلينا أن ننتبه لها، ونشتبك مع إنسانيتنا اشتباكاً لا تقوى

الأيام على حَلّه. ونكون على شفا سهل أخضر، بدلاً من أن نكون على شفا حفرة من نار، سهل أخضر يسمح بأن يكون امتداد الدفء بين الناس أكبر مما نحن عليه الآن؛ ليكون.

ثمة مقولة لأجدادنا الكبار تقول "يا ويله اللي ما يجي من نفسه".

فإن المشاعر مثل الندم كالسلاح ذي الحدين، مشاعر قادرة على أن تجعلنا نتوب عن الخطأ الذي اقترفناه، وقادرة أيضاً على أن تجعلنا نقف بمكاننا، دون التقدم والتأخر خطوة، فتضيع الفرصة وتضيع الحياة. والفارق بين الحدين هو إرادة الإنسان نفسه، لذلك قالوا القدامى "يا ويله اللي ما يجي من نفسه".

إن الإنسانية مليئة بالمشاعر؛ فلنخترْ منها ما يناسب من خُلق في أحسن تقويم، ولا نترك أنفسنا لما خلقه الله ليختبرنا به؛ فيُلطخ هذا التقويم.

إن تجاوزنا السيئة بالحسنة، فربما يكون ذلك هو الحل الوحيد، بشرط أن تطبق هذه القاعدة علينا جميعاً وفي نفس التوقيت.

وللاقتراب من بعضنا البعض سبب ومنطلق وحكمة؛ فإن الوليد يقترب من أمه، ويتقابل الصديقان، وقبلة على أيدي والدينا، ... إنه الاقتراب؛ فباقتراب إنسان من إنسان يولد ما يحتاجه كل منهما؛ فمنهما من هو قادر على العطاء، ومنهما من يقترب لاحتياجه لأمرٍ ما. ولذلك هناك قاعدة للاقتراب، أو معضلة؟!

فمتى يكون الاقتراب صالحاً؟!

ومتى يكون مسلك مؤدي إلى الندم؟!

فالإنسان؛ ذنوب وعيوب، صحوة وغفلة، ثبات وانجراف، الإنسان رُقي وتدني، صبر ولهفة، ... .

كل إنسان بلا استثناء لديه كل الصفات، من بداية المقياس لآخره - إن شرعنا بقياسها-، الإنسان لديه سلسلة من الصفات لا تنتهي، ربما تبدأ هذه السلسلة بالحمد وتنتهي بالجحود، ربما تبدأ بالصبر، وقبل أن تنتهى نرى السرعة، ومَن منّا ليس كذلك؟! لديه الصفة وعكسها؟!

ألا نقترب من بعضنا البعض؟! فَمن يبحث عن الرقة لدى إنسان سيجدها، ولكنه سيصطدم بالوحشية أيضاً لا محالة، ومن يريد الاقتراب من القوة فلا مفر من الارتطام بما يحمل الضعف.

إن الرؤية الوردية ليست هنا، وليست مع الإنسان. فمن تخيل أن النجاة لدى إنسان هلك، ومن أيقن أن الهلاك لدى إنسان نجى.
فلنتعامل مع الإنسان بمنطلق أن لديه كل الصفات؛ فلا نشق عليه إن أخطأ، فعذره أنه إنسان، فعلينا الحيطة من أنفسنا ومراجعة أفكارنا وأفعالنا، لأن الإنسان الذي نتحدث عنه هو أنا وأنت وليس كائناً آخر.

ذات يوم أحبت فراشة رقيقة زهرة جميلة فأقبلت عليها، ووقفت على أوراقها الصفراء الزاهية، وأخذت قسطاً من السعادة. وكان ذلك القسط كافياً لتفهم معنى السعادة، وتستشعر مذاقها. وعندما أقبلت على

نفس الزهرة في اليوم التالي لتستعيد إحساسها بالسعادة؛ افترستها الزهرة الجميلة ذات الألوان الصفراء الزاهية؛ فلم تستطع الفراشة الفرار والطيران، في البداية تسممت الفراشة، ثم تمزّقت أجنحتها، ثم تفتتت بباطن تلك الزهرة المفترسة. فكانت الألوان مجرد طُعم تجذب به فرائسها، طُعم من الصعب أن يبدو من بعيد أي شيء سوى أنه الغاية المنتظرة، أو قطعة من الجنة، أو أجمل الأقدار وأحسنها.
فالبعض منا في معظم الأوقات يكون الفراشة، والبعض الآخر يكون الزهرة. نحن نعيش طِبقاً لما نص عليه قانون الغابة متوهمين أن قانون الغابة لم يُكتب في قدر الإنسان، بل إنه كُتب. ولأننا لا نحيا بالغاية فظننا أنه ليس من قوانيننا نحن بني البشر، ولكنه حتماً موجود. وإن لم يكن موجوداً؟! فأين ذهبت الكثير من القلوب البيضاء التي فقدناها؟! وكيف سُلبت عقول كانت يقظة؟!

إذاً فقانون أمام قانون، فلنُسن قانوناً يطيح بقانون الغابة؛ ليعيد أدراجه إلى الغابة تاركاً مقاليد البشر، فليتجمهر كل من يطمح ويحلم في تقهقر قانون الغابة.

***

(١)

لين

"مطالبة الطيبين بتعميم اللين"

أمام مبنى المحكمة الدستورية العليا متجمهر الكثير من الناس في انتظار البت في مطالبتي أنا باسم آدم إبراهيم، البالغ من العمر واحد وعشرين عاماً، الطالب بالصف الرابع والأخير بكلية العلوم جامعة القاهرة، مواليد مصر القديمة الأصيلة والعزيزة، التي سار على أرضها أهلُنا الطيبون. الذين امتلكوا البركة كأنهم أخذوا لها براءة اختراع، والطيبة تملأ كل جيناتهم الوراثية، فكان عديم الطيبة بينهم طفرة كبيرة بعمر الإنسان. وبالرغم من ذلك لم تُدون في تاريخ العلم. بعام ٢٠٢٥ أطالب بتجريم مشاعر القسوة، وأن كل من تُسول له نفسه أن يقسو على غيره بنظرة أو بلفظ أو بحركة، يكون للمتضرر حق إدانته، وأن تكون عقوبته قاسية حتى يتذوق مرار ما قد سقى به غيره.

اختلف الناس ما بين مؤيد ومتعجب. فهناك من يؤيد بهتاف أو بلافتة. وهناك من يتعجب من الفكرة بتساؤل أو نقاش، حتى وأن أحد المتجمهرين حمل راية وكتب عليها (إن الإنسان كائن قاسٍ بطبعه، وغير ذلك غير موجود)، وغيره يحمل لافتة بعنوان (لا للقسوة ونعم

للقانون الجديد)، وهناك امرأة تبكي بشدة، وتنادي بصوت عالٍ (لا للقسوة، الإدانة الإدانة لكل قلب قاسي ولكل ضمير غائب!).

كان أطفال الشوارع متجمهرون بجانب الطريق صامتون، ولكن بوجودهم يتحدثون. القنوات الفضائية والراديو والـ(youtubers) والكثير من المشاهير موجودون بالساحة، الكثير والكثير من النساء اللاتي يبدو عليهن الحزن والألم، الكثير والكثير من الرجال يتحدثون عن قسوة أمهاتهم، ومنهم من يتحدث عن قسوة زوجاتهم، ومنهم من يتحدث عن ظلم أولاده وكأنه نار مشتعلة. وبمنتصف كل هذا الحشد أقف، أُنصت لكل من حولي وكأني أشعر جيداً بآلام الصامت، وأنصت بحرص لحديث من يتحدث. صعدت لأعلى السلالم المؤدية للبوابة الرئيسة للمحكمة، مُحملاً بآلامي وآلام غيري، ووقفت منادياً:

- أيها الناس، أيها الناس.

فانتبه الجميع ونظروا في اتجاه الصوت، وصمتوا.

"أيها الناس، إن لم تُجرِم المحكمة الدستورية العليا القسوة على الجميع، بإصدار قانون جديد يكون القانون الأول منذ أن خلق الله الأرض لتجريم القسوة، وتكون مصر أول دولة تعمل به؛ لتثبت للعالم أن مصر دولة رحيمة بطبعها، وأنها الدولة التي تفتح ذراعيها لكل من يعاني من القسوة، بداية من الأنبياء وحتى وقتنا هذا، فكم لاجئ لجأ إليها، وكم من مساعدات بادرت بها، فلنكن رحيمين جديرين بتلك الدولة الرحيمة. ليُجرم القسوة كل منا على نفسه، ولتكن بداية جديدة

لكل من سمع، ولتكن الرحمة بغيرنا دائرة تدور ثم تعود إلينا، فلا سبيل للقسوة غير الانتهاء من قلوبنا. وإن واجه أحد منا قسوة ما، فليشكو إلى الله دون أن يقابلها بقسوة؛ حتى تنتهي هذه الدائرة التي دارت، وأعادت دورانها بعدد أنفاس البشر منذ أن خُلقوا.

فلنبدأ باللّين أمام هذه القوة العمياء التي يأتي وقودها من أنفسنا، والتي كلما زادت؛ زادت أشكال الضرر، فلتكن نهاية كل ضرر، ولتكن بداية كل معافاة من الآن، وحتى تأتي أجيال لا تعرف شيئاً عن القسوة سوى أنها كانت سمة من سمات القدامى؛ فيستنكرونها"

سألني أحد المتجمهرين:

- وماذا عن الأسلحة وتكنولوجيا القتال والتخريب الذي ابتكرها الإنسان بناءاً على طبيعته الوحشية؟ والتي بها يستطيع أن يُبيد عرقاً بأكمله؟

- لذلك ننادي بتجريم أدق أنواع القسوة؛ كأننا نفصل جرثومة عن الدنيا، فتتخلص الحياة من شرها، نتخلص منها بأنواعها الملحوظة والغير ملحوظة. حتى لا نصل لهذه الدرجة من القسوة. إن تلك الجرائم لها بالفعل قوانين مثل قوانين حماية الإنسان وباقي المُنظمات التي من المفترض أن تفي بالغرض، ولكنها تفشل في الكثير من الأحيان، فالقضاء على الآفة خير من التعافي منها، والوقاية خير من العلاج. أتمنى أن يستيقظ الإنسان من غفلته تلك، وأن يُوقف الجرائم التي يقوم بها في كل مكان، وأن يتراجع عن إصراره لتطوير آلاته

ليقوم بأفعال عنف جديدة. فليكن الإنسان إنساناً بمعنى الكلمة، ولتتوقف القسوة عند عصرنا هذا بعدما بدأت مع قابيل؛ فتكون الحياة والجنة جديرين بنا.

سأل آخر:

- ماذا لو وافقت المحكمة على سن القانون؟ كيف سنضمن عدم الافتراء؟ فمن الممكن أن يفتري واحد على الآخر بفعل قاسٍ لم يقترفه، فكيف سنثبتها؟

- بالطبع، في الوقت الحالي الإنسان ما زال به تلك الشوائب التي لابد لها أن تُجرم حتى تتوقف، فمن المؤكد أننا سنرى تلك الأفعال الدنيئة، وحتى يتحقق ما نطمح به مع مرور الأيام والسنوات ستبذل التحقيقات مجهوداً كبيراً، حتى تتيقن من حدوث ضرر من إنسان على الآخر بالفعل، وعلى القانون أن يَصدر بآليات وقواعد لتنفيذه. ولكني أستطيع أن أقول إن لكل شيء بداية. وإن كل شيء في بدايته يكون صعباً ويكاد يكون مستحيل، ولكن بالإرادة والتصميم وصلابة القانون وتنفيذه سيتغير الإنسان تدريجياً حتى نصل إلى الهدف المنشود وحتى يتحقق ذلك ستمر فترة زمنية طويلة تتناسب مع مقدار قسوة الإنسان الذي مارسها منذ بدأ الخليقة.

سأل آخر:

- أولا يكفينا عقاب الآخرة؟

- يا أخي ولماذا ننتظر عقاب الآخرة؟! دعونا نحاول تغيير واقع أحمق، ونخاف عقاب الدنيا والآخرة، الشيطان متربص بنا، فدعنا نقاومه سوياً.

رأيت سيدة خمسينية تبكي، فذهبت لها، انتبهت لوقوفي أمامها؛ بدأت بتجفيف وجهها من الدموع. سألتها:

- لمَ كل هذه الدموع؟

- أنا محتاجة جداً إصدار هذا القانون، فإن الناس استوحشوا، فلا غالب لهم. وإن الله يُمهل حتى يتوب العاصي، ولكني لا أستطيع أن أُمهل من ظلمني حتى يتوب، وربما لن يتوب أبداً. أخشى أن ترفض المحكمة وتضيع آمال الكثير ممن ينتظرون عودة حقوقهم. إن سمعت المحكمة قصتي فلن تتردد أبداً في سنّ هذا القانون الذي سيوقف نثر بذور القسوة والوحشية.

وروت لي رواية لا يمكن أن تُنسى...!

"كنت في السابعة عشر من عمري، حين أرسلتني أمي كي أعمل في مجال التجارة بجانب دراستي، حتى أستطيع أن أتكفل بجزء من مصاريف دراستي؛ نظراً لمعاش أبي القليل، وراتب أمي الذي لم يكن يَكفي تكاليف دراسة أخي الأصغر. فأجدت العمل في ذلك المجال وأتقنته، وأصبح صاحب العمل يعتمد عليّ في كل تفاصيل العمل، وظل هذا الحال سنوات؛ حتى أصبح عمري ستة وعشرين عاماً،

ألقيت بكل اهتمامي في هذا العمل طيلة تلك الفترة، تخرجتُ من معهد فوق متوسط وانا أعمل في نفس المكان، وولائي واهتمامي كله له.

تعرفت على زوجي الذي كان يعمل بنفس المجال ولكن بشركة أخرى، فطلب يدي للزواج، فرحت به كثيراً، كان يجيد عمله مثلي تماماً. ولكنه كان من بيت مُعدم وأسرة مفككة؛ رفضت أمي تلك الزيجة. فدائماً ما يرى الكبار المستقبل في تلك الحالات، كأنهم سحرة لهم قدرات لا نستوعبها.

ولم أكن أُدرك وقتها أن رفض أمي كان حتمياً لأنها تنظر للمستقبل، ولا تنظر للوقت الحالي مثلما فعلت أنا وقتها. وكان الأمر واضحاً تمام الوضوح، لا يحتاج إلى ساحر ولا خبرة سنوات ولا حكمة شيخ كبير، كان القرار برفض الزيجة هو أنسب وأصح قرار. كان بيت أمي فقير، ولكننا أسرة مترابطة؛ تحترم الكبير، وتعطف على الصغير، ولم يكن هذا مُتّبع في بيت أهل زوجي، كان لكل واحد منهم حياته، من دون أن يهتم بحال أخيه، وإن كان في شدة. وبالرغم من كل ذلك لم أنتبه له، ولا لرأي أمي ورفضها.

تشبثت بقراري ورغبتي في الزواج به، فوافقت أمي خوفاً عليّ، وخوفاً من أن أستجيب لتهوري معه لشيء يضر بي. لا أدري هل كان من الممكن فعلاً أن اقوم بفعل مثل هذا؟! الآن لا أستطيع أن أقول إن خوف أمي كان مبالغاً فيه؛ فهي أم، وتخاف على ابنتها

الصغيرة التي لا تعرف ما ترسمه الأيام على الملامح؛ فمن المستحيل أن ترسم لوحة متناسقة لمستقبلها.

كان مُعدم الحال فساعدتُه، وتحملتُ أنا الكثير من متطلبات إنشاء البيت؛ حتى تزوجنا بالفعل.

في البداية بدا كل شيء جميلاً، ولا يشوبه شيء، حتى بدأ زوجي يتغيب عن عمله حتى تركه، وكان يعتمد عليّ في كل شيء، وأطلق لنفسه عنان الترفيه والراحة؛ فبالنهار نائم، وبالليل مع أصحابه يمرح هنا وهناك.

اكتشفت أنني أعاني من ورم ليفي في الرحم؛ يحول بيني وبين أن أصبح أماً، وبعد الكثير من الأدوية والمحاولات بُشرت بحملي بيوسف الذي مات ببطني وهو ابن تسعة أشهر.

لم أشعر يوماً أن زوجي حزن على ولده الذي مات دون أن يرى الدنيا، ولا أشفق عليّ ولا على معاناتي في العمل، وعلى حرماني من أمومتي، ولا على حزني لفراق وليدي الذي حُرمت من شعوري به، واحتوائه في حضني. كان لا يبالي بأي شيء يحدث حوله مادامت رغباته كلها مُلباة.

استمرت الحياة على هذا النهج وهذه الأنانية، ولكنني كنت أتابع حالتي الصحية حتى أتمكن من الإنجاب، وبالفعل رزقني الله بابنتين، الفارق بينهما عام. ويعلم الله أني عانيت حتى يصبح لي ذرية، وكنت

أسمعه يقول عني "أرض بور". ولكن الله أراد أن يرد غيبتي. ويقر عيني ببنتين لم يرعاهما يوماً حتى كبرا.

تطورت خبراتي، وتطور عملي؛ فاستقللت بعملي الخاص بعيداً عن الشركة التي قضيت بها نصف حياتي، والتي تعلمت بها تفاصيل للعمل وللحياة، لم أكن لأصل لها قط إلا في تلك الشركة.

كل هذه السنوات يلعب هو ويلهو بالعمل، ولم يعرف قيمة للوقت أو للمال أو للأولاد، كان يورط نفسه في ديون وتجارة غير مدروسة، وكنت أنا من يسدد عنه دينه حتى لا يصيبه مكروه، كنت أحافظ على بيتي بكل طاقتي، وكان هو والد بناتي؛ فكان الأحق بالحفاظ عليه؛ حتى أتى يوم ازدادت فيه الأمور سوءاً. برغبته في أن يتزوج بأخرى ويطلقني. فوافقت وكلي حزن على حياتي الملطخة باستهتار رجل لا يعرف للأبوة ولا للحنان ولا للضمير سبيل.

بالفعل طلقني وتزوج بأخرى في شقتي، بعد أن طردنا منها ليتزوج هو بها. والغريب في الأمر أنها كانت مطلقة ولديها طفل صغير، والذي كانت إقامته لا تفارق أمه بالطبع. فلن تكون امرأة متفرغة له، بل كانت أماً مشغولة بطفل عمره بضعة شهور. في هذه الفترة تكون المرأة مشغولة بوليدها لدرجة عدم امتلاكها بضع ساعات للنوم؛ فكيف باعتنائها بزوج جديد؟!

وبمرور الشهور بدأ تعسره المادي، وفسد عمله، وبدأت الشرطة تبدأ بملاحقته لكثرة البلاغات التي تدينه بعدم سداد شيكات بدون

رصيد أو كمبيالات، فقرّر أن يُطلّق الزوجة الجديدة ويعود إلينا، فظننت أنه تلقى درساً من الله وتاب عن قسوته الشديدة علينا، فوافقت على عودته إلينا لقناعتي أن بنتيْ أولى بوالدهما، وقمت بتسوية تعثراته المادية وعدنا للحياة، ولكنه استمر بقسوته معي ومع البنتين. وظل يعمل معي بتجارتي، حتى تبينت أنه يتلاعب بي وبالتجارة والتجار. غير مكترث بمستقبل بنتيه. فلجأت لكبار أسرته حتى يُطلقني ويبتعد عنا؛ ربما يتعظ من درس أكثر قسوة من الدرس الماضي، ولكنه رفض، فاضُطررت أن ألجأ للقضاء، ولكني لم أصل إلى شيء، وهو ما زال مقيماً معي بالبيت، وإن قصرت في شؤونه وشؤون البيت هاج وماج، وأسمعنا كل الألفاظ التي لا يجب ان نسمعها. وما زال يستغل اسمي بالتجارة كي يتكسب، وانا اربأ بنفسي عن تشويه سمعته، وإن اردت لفعلت في لحظة ليجد كل من يتعامل معه يستنكرونه. حتى سمعت بمطلبك يا استاذ باسم وذاع صيتك؛ فأردت أن أُشيد بفكرتك، داعية الله أن يُرشد المحكمة ويهدي أعضاءها القضاة إلى سن هذا القانون الذي سوف يبتلع أفعال لا تليق بالإنسان، وإن الإنسان خلقه الله حراً، فكيف يأتي غيره فيكون سلطان ظالم عليه؟!"

سمعت كل حرف من حكايتها وقد انتابني شعور بالغثيان، فدعوت لها أن ينصرها الله عليه إن بقي على شره، وأن يهديه إليهم إن أراد الله له التوبة.

أتى سيدتان في بداية الثلاثينيات، ويبدو عليهما الحزن والأسى، يسير بجانبهما طفلان صغيران بعمر السنتين، اسمهما يحيى ويونس يشتكيان لي. فقالت الأولى:

- زوجي طبيب بشري، من عائلة كانت تبدو على قدر كبير من الرقي والاحترام، الأب دكتور جامعي، والأم أيضاً، والأبناء جميعاً أطباء بشريين وأنا صيدلانية. منذ بداية الزواج وأسرته كلها تعاملني معاملة لا تليق بي وبهم، ما بين ألفاظ جارحة وسلوكيات تنم على البخل والأنانية؛ حتى ترى الأخوة رغم غناهم المادي فهم يمتنعون عن برّ بعضهم البعض، حتى على والديهم؛ فلا يتواجدوا أبداً كأسرة متحابة في يوم عيد أو إجازة. يأتي عليهم رمضان لا يتجمعون بل يكتفون برسالة مكتوبة على واتس آب فقط، وأستطيع أن أقول إن الأب والأم غير حزينين على ذلك، بل ممتلئين بالرضا؛ لأن لكل منهما طقوسه ورغباته الخاصة التي لا يسمح لأحد أن يخترقها بقدومه إليه مصطحباً زوجته وأولاده، فيكون عليه أن يوفي طلبات الصغار ويرحب بالكبار. صبرت على كل ذلك بالرغم من تربيتي على عكس ذلك تماماً، فعائلتي أسرة مترابطة متحابة، وعلى الرغم من أننا لسنا في مثل غناهم؛ إلا أننا أغنياء بالمحبة. صبرت آملة في استقامة الأمور بالعِشرة، وفي تغيير زوجي؛ فيَصل رحمه، وتتولد لديه عواطف تنقصه بعد أن يكون لديه أطفال صغار، وبعد مرور سنتين، وبعد إنجابي ابني الوحيد سافر زوجي إلى بلد عربي مع وعد

منه بأني سريعاً سألحق به، حتى يتربى ابننا في رعاية أبويه معاً، ولكن ما حدث لم يكن أبداً في الحسبان. نسى تماماً أنه كان متزوجاً ولديه طفل، حتى يهنأ بما يتقاضاه كاملاً من دون أن ينقص منه شيئاً على امرأة وابن، واللذين لهما من المتطلبات الكثير. فقطع ومنع كل أنواع الاتصال، طلقها طلاقاً غيابياً بعد أن رفعت عليه قضية طلاق للضرر آملة ايضاً أن يستيقظ من غيبوبة، أو أن تُزال تلك الغشاوة، وأن يسد أذنيه عن وسوسة الشيطان. ولكنه طلقني من دون الاعتراف بأن لي حقوقاً شرعية، وأن ابنه له فيه الكثير، فتحرر من جميع حقوقنا. كان كل هدفه الحفاظ على راتبه كاملاً حتى يمتلك عيادة وفيلا في الأحياء الراقية، ويكون لديه مستقبل ليس به سوى الرفاهية؛ فحرمنا من جميع حقوقنا، ولم يعد حتى في إجازة صغيرة كي يرى ابنه ويطمئن عليه، والغريب في الأمر أن والديه ساعداه في إنكار أي التزام تجاهي وتجاه ابنه؛ فرحيْن بالراتب الخيالي. وعندما طالبت بحقوقي كان ردهما "أنت غرزة وهو اتغرزها".

ثم صمتت وعلى ملامحها حزن عميق، فأكملت ملامحها الحزينة باقي القصة.

روت الثانية:

"أما أنا فحكايتي مشابهة تماماً، ولكن الفارق أني لجأت إلى القانون، وبالفعل صدرت أحكام ضد زوجي الذي تركنا بعد أن غرّته الحياة وشهواتها، وتركنا متعللاً بأن عمره قصير، فلا يريد أن يقضيه

مقيداً بمسؤوليات الزواج. وبالرغم من صدور تلك الأحكام لم أحصل منه على أي شيء من حقوق ابني، رغم وجوده داخل البلاد. فهذه القوانين لا تُفيد، فباختفاءه وتزوير أوراقه وتغيير محل سكنه ومكان عمله باستمرار نجح في أن يتهرب من تنفيذ الأحكام، وإعطاءنا حقوقنا التي نصت عليها المحكمة".

بعدما انتهت السيدتان من سرد قصصهن، لم أستطع أن أحرك شفتيّ، تصلبت أفكاري؛ فاستعصت عليّ مواساتهما حتى ولو بكلمة، أو إعطاءهما أمل في سَن القانون، اكتفيت بنظرات الذهول، ولو كان هذان الرجلان أمامي لقلتهما.

ذهبا كي يجلسا في مكان ليستريحا في انتظار إعلان رأي المحكمة. حزنت حزناً شديداً أفقدني قدرتي على الوقوف، وتعجبت كيف تغلبا على لحظات حزنهما ويأسهما، كيف سيكملان حياتهما كأمهات قويات؟! كيف سيحيطان أولادهما بالرعاية والحنان والاهتمام وهما يحتاجان نفس الشيء وليس لهما سبيلاً للحصول عليه؟! أيقنت وقتها أن القوانين الموجودة تحتاج لقوانين أخرى تدفعها للأمام، تجعلها تسبق بخطوة كي تمنع هذا التفشي من اللاإنسانية، إن الإنسان يحتاج إلى قوانين مرنة تناسب أحجام الضرر، أيقنت أن الإنسان فشل في أن يأتي بحقوق طفل صغير، وهو الذي سافر للفضاء وتحدى الجاذبية. فكيف له أن يظل واقفاً مكتوف الأيدي أمام رجل دنيء وجبان إن هجم عليه كلب ضال مات خوفاً؟!

أتسائل لماذا يُحرم الاطفال من رؤية حياة أكثر أماناً! لماذا نجعلهم يشبّون على أخذ الحذر من أقرب الناس لهم؟!

ولماذا يجب على تلك المرأة أن تواجه نفسها بخطأ لم تقصده باختيار رجل غير صالح؟!

ولماذا ستخوض معركتها مع الحياة والسير فيها بلا شريك؟! كيف؟!

ألم نجد بالقانون ثغرات تجعل المرأة تقضي باقي عمرها بين المحاكم دون أن تحصل على حقوقها وحقوق أولادها؟! ألا يفشل القانون في الكثير من الحالات أن يأتي بالحقوق لمستحقيها؟! فربما يكون سن قانون جديد يُوقف سيل القسوة من الأساس حتى يحول دون الوصول إلى هذا الحد، هو الحل الوحيد المتاح لدينا. وليته يكون.

الكثير والكثير من المظالم من باطن الأرض حتى عنان السماء، بالأمس أرسلت امرأة رسالة تشكو لي من قسوة زوجها وظلمه لها لمنعها من الإنجاب، وقد تزوجت منه مؤخراً وهي على مشارف الأربعين، وفرصتها في الإنجاب في عدها التنازلي، وعلى الرغم من ذلك يمنعها، وعلى الرغم من أنه يعلم من قبل الزواج رغبتها في إنجاب طفل، إلا إنه لم يصرح برفضه وعدم رغبته في الإنجاب قبل الزواج، ولو فعل لرفضت. فقررت الطلاق منه آملة في الحصول على زوج آخر في أقرب وقت ممكن ولكن ذلك في علم الغيب.

ومن المؤكد أن للرجال مظالم كثيرة وربما تساوي في قسوتها ما تتعرض له النساء، ولكن الرجال يأبون الشكوى. والكثير منهم لا يملك القدرة على ذلك، فيختار الصمت، وإن تفوه لقال ما تشيب له الولدان.

ذهبت لأقف بجانب أبي حتى أقترب من منبع قوتي ومنبع الفكرة التي احتشد كل هؤلاء الناس من أجلها. أبي من علمني أن لين القلب فرض وأن القسوة ذنب كبير منذ أن كنت صغيراً.

(2)

ذكريات تتنفس

"أموات يحيون بنا"

وسط الحشد الكبير بساحة المحكمة الدستورية العليا يتذكر والدي -آدم إبراهيم- أيام الحرب، وكيف كانت الحياة مؤلمة، وكيف كان هو نفسه مشروع شهيد من الممكن أن يضاف لقائمة الشهداء في كل ساعة وفي كل لحظة.

كل يوم اسم شهيد أو مفقود جديد يُضاف إلى القائمة. تذكر الجوع، والعوز، وما عاشه، وما خلفته سنوات الحرب، واليتم، والترمل، وفقدان بصر الأمهات حزناً على شباب أعزّة ماتوا في سبيل وطن أعزّ، وتذكر قسوة العدوان الذي لم يترك للوحشية طريقة للإعلان عنها إلا وقد فعلها، لم يترك أطفالاً في مرح، ولا مريضاً يكمل طريق المعافاة، ولا شعباً في سلام. إصرار عجيب على حفر أنهار من الدماء تشوه جمال المكان، ونشر رائحة البارود لتطغى على رائحة بساتين كانت تملأ صدور مالكيها. تذكر تزايد المقابر، وامتداد الأحزان. متسائلاً ماذا يريد الإنسان؟! ماذا يريد أكثر من الحرية والصحة والأمان؟ لماذا يطمع في أشياء أخرى تجعله يلجأ لكل هذا

الدمار ليأخذ أشياء أخرى؟ وربما يفقد بسببها حريته أو صحته أو أمانه أو حياته؟ فأي بله هذا يقود الإنسان إلى هلاكه؟!

ظهرت أمامه ذكرى الطائرات والصواريخ وتساقط الجنود وانهدام المباني.

وأنه في يوم من أيام الحرب في مقر الأسرى صوت جندي من العدو أُخذ أسيراً يروي له في أسره بصحراء مصر الشاسعة التي مُلئت بمراوغات الحرب، عن خطيبته، عن حبه لها، وانتظارها لعودته. عن أمه وأبيه اللذين ينتظران عودته ليعتني بأخيه الأصغر المريض بالتوحد؛ خوفاً من مغادرتهما الحياة وتركه بمفرده؛ فلا يجد من يرعاه. ذلك الأسير أتى إلى الحرب بجسده القوي الماهر في شؤون الحرب ومراوغاته التي تفرض نفسها على ساحة المعركة، تاركاً كل مشاعره مع هؤلاء المنتظرين؛ أمه وأبيه وخطيبته وأخيه، فيقاتل بمنتهى القسوة، كأنه ينتقم منا بدلاً من قيادة بلاده التي فرضت عليه هجر أحبائه، وربما لن يعود إليهم أبداً.

وأسير آخر يروي عن أخته الصغرى التي اضطر أن يتركها بدار رعاية حتى يعود إليها، بعد أن توفى أبواهما حزناً على ابنهما الأكبر بعد أن مات في الحرب أيضاً.

سأل أبي الأسير الثالث:

- لماذا إذاً الاحتلال واغتصاب الأرض؟! كان من الممكن ان تظل جنة لنا جميعاً، لماذا كل هذه القسوة؟!

أجاب بمنتهى الثقة:

- ليس لكم سوى القسوة والإبادة ما دمتم موجودين.

نظر له بقية الأسرى نظرة غضب شديد، وقال أحدهم في يأس:

- ستظل القسوة بعمق الإنسان، البعض يستدعيها إن أراد، والآخر ساقته إلى حيث تريد.

ثم انتبه أبي للأصوات العالية من حوله التي تنادي بتجريم القسوة أشد عقوبة، مكبرين أصواتهم بأن القسوة أم الذنوب، فيعود للهتاف معهم تاركاً ذكريات الحرب في زوايا قلبه وكيانه، وهو يعلم أنه على موعده الدائم معهم، يتذكر أحداثاً خالدة في تاريخ مصر، حتى غنينا بسم الله، الله أكبر بسم الله بسم الله، بسم الله أذن وكبر بسم الله بسم الله. وكان النصر.

وقفت أشاهد ذلك التجمهر من أجل هدف واحد؛ هدفي؛ الذي لو تحقق سيتم إلغاء القسوة من نفوسنا طوعاً حتى لا نفقد إنسانيتنا في الدنيا والجنة في الآخرة، وكلي اعتزاز وتصميم على هذا الهدف؛ لأنه هو نفس الهدف الذي كان يدعو الله به جدي إبراهيم، والذي ظل يدعو الله به، أن يعم لين القلب كل النفوس على الأرض، ولم يتوقف يوماً حتى توفاه الله.

***

كنت مع أبي حين كان جدي طريح الفراش، وبجانبه كرسيه المتحرك ومن الجانب الآخر جدتي العظيمة التي كانت لزوجها أماً وزوجة، أتت له بتسعة أبناء، ثلاثة رجال و ست بنات، كانت لهم الدرع الواقي من أنفسهم ومن الأيام. ربتهم على القوة، وقبل القوة الحق والإخاء والعطاء. تربوا مع ثلاثة من الأخوال، كانوا بنفس أعمارهم. فلم تدع امهم العظيمة كثرة العدد يكون سبيلاً وتمهيداً لفساد أي منهم، ولم تدع الفقر يكون سبيلاً للأنانية أو الاحتيال. بل شبوا على حبهم لبعضهم قبل حبهم لأنفسهم. وكان الخير والبركة يملآن البيت ولم ينتهيا قط. كانت تعدل بينهم في المأكل، وتخاف أن تظلم يداها في تفريق المناب، كانت تقول يد الحر ميزان. كانت تعلم أن يداها سوف تشهد عليها إن ظلمت، وأن فم كل منهم شاهد عليها يوم القيامة. وهذا ما لقنته لأبي عندما وجدت في فراشه عشر قروش مخبأة، فظنت أنه قد سرقهم من مكان ما، وبعد مواجهته تأكدت أنه قد عثر عليهم في حوش البيت. فدستهم -حافظت عليهم- لعل يأتيها سائل عنهم، فتعلم أبي درساً مهماً، أن الإنسان كما يجب عليه أن يحافظ على نفسه وشؤونها، عليه أيضاً الحفاظ على غيره -وإن استطاع- وشؤونه أيضاً. مثل من يقود سيارته في طريق مليء بالسيارات والدراجات والدراجات البخارية والمارة، فعليه أن يحافظ على

سلامته وسلامة المحيطين به، فلا يتصرف تصرفاً أحمقاً وأنانياً يجعل من حوله في مأزق أو كارثة، ويفر هو إلى طريق آخر.

فإذا بصوت جدي ينادي أبي:

"كن أميناً على غيرك كأهل بيتك يا آدم، فلا تظلم ولا تقسو، وكن ذا قلب لين، ورجلاً مشهوداً له برجاحة العقل والقلب، فلا تترك قلبك يميل إلى الكراهية؛ فمن يستحقها اليوم، يكون هو التائب غداً. وسبحان مقلب الأحوال. إن الإنسان يتغير خلال حياته عدد لا نهائي من المرات، وسبحان من يُغير ولا يتغير. وليكن قلبك مثل جسدك الذي يتطهر خمس مرات في اليوم، فيعود نظيفاً بعد اتساخه. إن الله يعلم أني فقدت قدرتي على الحركة، ولكني لم أفقد رغبتي في أن أكون في عون غيري، لذلك وهبني الله إياك، وأنا متيّقن أن قلبك مثل قلب أبيك لا يجيد سوى المحبة واللين، وكن يد أمك التي ستكمل عني ما قد بدأته، واعلموا جيداً ولا تنسوا أن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه".

وانتهى الكلام، ولم يمر سوى دقائق إلا وقد قابل ربه. حزن أبي وبكى حتى احمرّت عيناه ونفرت عروقه، وأخذ أمه في حضنه وربّت عليها، وطلب منها الصبر والدعاء. ترك حضن امه ووجّه أباه النائم في سبات أعمق مما يظن أو يتخيل، وذهب إلى جانب الحائط الذي تحوّل إلى مكتبة كبيرة صنعها جدي بنفسه قبل مرضه، كان مجرد حائط في بيت بسيط؛ ولكنه كان قِبلة لقلبه وعقله. كان العالم

الذي يأخذه إلى أراضٍ أخرى بها حيوات كثيرة، كان يقضي به ساعات كل يوم متناولاً كتبه ليقرأها بكل كيانه، كان ذلك الحائط المليء بالكتب.. كل ثروته، وحدائقه، وقصوره، وآخر شيء صنعه بيده قبل مرضه.. مرضه الذي أفقده القدرة على تحريك ساقيه، وأجلسه على كرسي متحرك. وبجانب هذا الحائط كرسي قديم، كان يجلس عليه عند القراءة منفصلاً عن العالم لساعات، ولكنه بات كرسياً مهجوراً بعد أن أصبحت جلسته على ذلك الكرسي المتحرك؛ والذي يستعد هو الآخر لنفس المصير، يستعد لأن يكون مهجوراً مثل الكرسي المجاور، كأنهما مدينتان هجرهما سكانهما لمكان آخر لا يعلمان عنه شيئاً.

كان أبي فخوراً بأبيه الذي قرأ كل هذه الكتب المختلفة، لكن كتاباً واحداً جعل قلبه يزداد حزناً أكثر ممّا به من حزن؛ وهو كتاب بعنوان (الحياة يوم واحد) من تأليف جدي نفسه، فشعر أن حياته مع أبيه كانت مثل اليوم الواحد الذي انتهى بسرعة كأنه نهار يوم شتوي. وأن الحاج إبراهيم رحمه الله لن يصبح ذكرى، بل سيظل حياً بداخله، حياً ولكنه لا يتنفس ولا يتحرك. وقرر أن تظل عيناه على تلك المنارة التي كانت ترشد أبيه من قبله؛ ليسير في نفس اتجاهه ليكمل ما بدأه أبوه، ويستمر عليه ولا يتوقف إلا بانقطاع عمره.. وجد في كتاب جدّي قصاصة من الورق مكتوب فيها "من كلمة يهتدي إنسان، ومن نغمة يرق، ومن بسمة طفل يلين، ولقد رأيت ذلك في الحيوانات حتى

أشرسها، ولكن بعض البشر لا تهتدي ولا ترقّ ولا تلين، وبذلك يكون هناك بعض البشر لديهم إنسانية غير مكتملة؛ لذلك علينا استئناسهم".

"رحمك الله يا جدي، وألحقني بك على خير يا جدي الحبيب".

سار أبي على نهج جدي، فكان كلّما قابل شراً قابله بعقل وحيطة؛ ليتّقيه؛ فلا يقع فريسة الثأر. ولم يقابل قط الشر بالشر، بل كان يقابل السيئة بالحسنة؛ أسوة بالرسول الكريم.. وكان يدرك أن مقابلة السيئة بالحسنى لا تكون إلا مع الشريف الأصيل، ولكن عند مقابلة الدنيء كان ينأى بنفسه عنه بعيداً، ويهرب من معرفته مهما كانت المحصلة المرجوة من هذه العلاقة. آمن بأن للعلاقات أبواب مفتوحة، نخرج منها إن أردنا، وإن أردنا أغلقناها.

(3)

فرحة

"شيء ضائع، ربما كان الفرحة"

أختي (فرحة آدم إبراهيم) طفلة أتت من ماء آدم ورحم حياة، منذ أربعين عاماً ونيف.. والأن هي سيدة ذاهبة بعمرها إلى العجز والكبَر والكهولة؛ ولكن بروح شابة في الثانية والعشرين تقريباً؛ سيدة اختارت أن تمحو عشرين عاماً من عمرها، ونَجحت في ذلك على مدار خمسة أعوام، خمسة أعوام مروا عليها في عذاب شديد محاولة أن تكون أمّاً جيدة، وامرأة قوية؛ تحاول أن تتجاوز خذلان شريك حياتها، وحبيب عمرها بعد عشرين عاماً عاشتهم تجاهد كي ترضيه، ولكنها في النهاية فشلت في إرضاءه. فرفضها ورفض السكن إليها، وذهب وذاب في حياة وكيان امرأة أخرى، فاختفى من حياة فرحة وأولادها.

وضعها زوجها (سيف) أمام بوابة مفتوحة على العذاب على مصراعيها، وبعد أن عبرت البوابة وابتعدت عنها أميالاً حاملة معها كل أنواع العذاب الذي من الممكن أن تشهده امرأة خانها وجرحها في أنوثتها، وعكّر صفو عذوبة روحها، وأرغمها على أن ترى نفسها كائناً يستحق الكراهية، وجديراً بالهجر. وبعد تلك الأميال التي مشتها

مبتعدة عن فرحتها واستقرارها قررت أن تضع لعذابها حداً، ولهذه الأميال نهاية، وأن تعود من حدود اللانهاية إلى حيث كانت؛ فنجحت في أن تمحوه من كل ذاكرة لديها؛ لتعود إليها ضحكتها، وتترك كل تلك الأحزان في مكانها البعيد، وتعود إلى نقطة البداية. عادت فتاة في ريعانها، ما زالت في بيت أبيها وأمها (آدم وحياة) والتي فهمت منهما أن الإنسان شعور قبل أن يكون جسداً، فمن الممكن أن يفقد الإنسان أجزاءً من جسده، ولكنّه لا يفقد أبداً مشاعره، حزنه وفرحه، ألمه وراحته، حتى في نومه تنتابه الأحلام المختلفة، أو يقتله الأرق فيظل يشعر بينما يفقد القدرة التفكير، وإن توغّل في غيبوبة تطرحه فراشه؛ فيكون في عالم لا يفهم لغة الجسد بل يفهم خريطة الذهن والعواطف. تؤمن بأن الإنسان مثلما تقتله قذيفة من البارود؛ فإن التهكم بارود يدمر النفس ويفتك بها أيضاً. وأن الإنسان يُفرِحه التقدير، وتُذيبه كلمات الحب ونظراته، وتنهش قلبه الكراهية ونفثاتها.

فرحة خريجة كلية الآداب قسم تاريخ؛ التاريخ الذي شهد انفلات الإنسانية من عقالها، ففرضت دراسته عليها سؤال؛ تعلم جيداً أنها لن تجد له إجابة أبداً، وهو "ماذا يريد الإنسان؟"، فقد خلق الله الإنسان ووهبه قوة، وحياة، وجمال الأرض، وسحر الطبيعة، من دون تعب منه أو جُهد، وبالرغم من كل ذلك ترى الإنسان لا ينتبه لما بين يديه، ولا يتمتع به سائلاً الله البركة فيه. بل تراه معتوهاً يجري وراء الوحشية على قدمٍ وساق. فكثرت الحروب والوحشية في كل عصر

وعهد، وتفنن الإنسان في طرق العذاب؛ غير مبالٍ بأنه يعذب إنساناً مثله.

فيبقى السؤال بذهنها بلا إجابة. كانت أول مرة تتفوه سائلة هذا السؤال عندما كانت بالجامعة، وكانت تنتظر موعد محاضرة تاريخ الأمم، بينما أقدمت عليها صديقتها نورا لتريها صورتين لشاب وفتاة. كان الشاب زميلاً لنورا من كلية التجارة في الجامعة نفسها، أما الفتاة فكانت حبيبته المُتوفاة منذ شهرين في حادث على الطريق الساحلي، ولم تكن الملامح الموجودة في الصورة ملامح فتاة، بل كانت ملامح ملاك شرد من السماء ثم اهتدى؛ فعاد إليها في ذلك الحادث الأليم. فيا لحزن ذلك الشاب، يا لفجيعة قلبه عليها!

أما عنه فقد كان وسيماً لدرجة تلفت انتباه أي فتاة، تلك الوسامة التي تليق برجل ذي قوة وشأن. مرت الأيام ولم يفارق ذهن فرحة ملامح ذلك الشاب، وتمنت أن تراه وأن تعزيه في فتاته، وتدعو له الله أن يربت على قلبه. حتى جاء اليوم الذي لبى الله فيه ما تمنت. وسط زحام الطلبة شاهدت نورا تتحدث لشاب، وبتحديق عن بُعد علمت أنه هو نفسه صاحب الصورة، لقد ظهر أخيراً، لقد بات حقيقياً في واقع كان يفتقده وينتظر أن يكون جزءاً منه.

اقتربت مسرعة لمركز الأرض وقتها؛ إلى مكان وقوفه، في مشهد تراه بالفعل وليس في خيالها. نظرت إلى نورا مشيرة بيديها:

- هل هذا سيف حسني؟

نظر لها نظرة أذابت قلبها المشتاق لرؤية تفاصيل ملامحه حقيقة لا في صورة، وقال لها بابتسامة رقيقة:

- نعم، أنا سيف حسني.

ابتسمت في خجل، وأدارت وجهها بعيداً عن نظراته التي كانت تهبط على وجهها كسهم صُوّب نحوه فأصابه بدقة. لم تجرأ على التحدث عن الفتاة حتى لا تعيد أحزانه، كما أنها شعرت بالخجل ولم تجد كلاماً مناسباً، إنها المرة الأولى التي تتحدث فيها مع رجل لا يربطها به أي علاقة أو معرفة. وتمنت لو أنها تستطيع التغلب على خجلها، حتى تتحدث معه وتسأله عن أي شيء، وتسمعه يجيب، فاستحضرت شجاعة؛ وفكرت في أن تسأله السؤال الذي يحيرها:

- في رأيك، ماذا يريد الإنسان؟

- إن الإنسان وإن عاش ألف عام، لا تسعفه تلك السنوات لفهم ما يريد.

أُعجبت جداً بإجابته وقتها، ولكن إن كانت انتبهت للإجابة جيداً لربما كانت استشعرت فيها تقاعس؛ وربما كان اختلف مصيرها.

انتهي اللقاء بسلام سريع، وكانت تتمنى لو أنها استطاعت إطالة الحديث أكثر لتسأله أكثر ويجيب أكثر، فتستمتع بأسلوبه وكلامه وصوته الذين بلغوا عندها حد الإعجاب منذ الدقيقة الأولى.

مرت سنوات الدراسة وقلب فرحة متعلق بذلك الغائب الذي لم يكن ملتزماً على الإطلاق، وكان الرسوب في كل عام أمر حتمي حتى انتهت سنوات الدراسة.

بعد مرور عام كامل من تخرج فرحة قابلته صدفة بمعرض لوحات بدار الأوبرا، فرحت وكادت أن تُجن أو تُصاب بأزمة قلبية، ومن فرحتها المندفعة نادت بصوت عالٍ، وركضت نحوه كالطفل. فكثرت نحوها نظرات التعجب. فرح بها ولم يتعجّب من اندفاعها وفرحتها؛ فهو يعرفها جيداً، فكثيراً ما رأى ذلك الاندفاع والركض نحوه؛ يعرف كيف تكون فرحتها، وكيف يكون اندفاعها حين تراه، ولكنه تعجب من تذكرها له، وحبها الذي لم ينته منذ مرور عدة أعوام على لقاءهما الأخير. ذهبا إلى مكان هادئ كي يأخذا شراب معاً، فتحدثا عمّا مضى، وكان هذا اللقاء بداية علاقة جديدة، بداية حياة جديدة موحشة لم تكن تتمناها لنفسها، وهْماً منها أن في تلك الحياة كل ما كانت تحلم به ،ولم تكن تعلم أن في بعض الأحيان نحلم أحلاماً جميلة؛ ولكن تحقيقيها ليس بالضرورة أن يكون جميلاً مثلها.

***

صارح سيف فرحة بنفس تعسّره القديم، كان وما زال في تعسّر مادي كبير، وأنه رب أسرته في ظل تقاعد أبيه. وأنه لم يحصل على شهادته الجامعية بعد، وبالتالي لن يحصل على شهادة إنهاء الخدمة العسكرية إلا بعد إتمامه الثلاثين. وليس لديه بيت يصلح للزواج، ولا

عمل ثابت يجعل من حياته حياة مستقرة، وبالرغم من كل ذلك آمنت بكفاحه، وقالت له إن كل ذلك من الممكن أن يسير في الاتجاه الصحيح بوضع خطة متكاملة تُنفذ بصرامة كي يستطيع أن يُكمل دراسته ويستمر في عمله. فوافق سيف على كلامها، ووضعا الخطة؛ وكان من ضمنها الزواج. أُعجبت فرحة بأن حبيبها رب بيت أبيه، وإن ذلك يزيد من شأنه، ويجعله في نظر كل من رآه قدوة حسنة ومثلاً يُفتخر به، وأنه لولا ذلك لكان حصل على شهادته الجامعية التي حالت بينه وبينها رسالة أعظم.

***

في ليل هادئ متلألئ النجوم والقمر بدر، في طريق طويل جميل وعريق من أحياء القاهرة العظيمة، سارا معاً، بعد مرور العديد من السنوات على آخر لقاء لهم في ساحة الحرم الجامعي، والذي كان لا يتعدّى الدقائق؛ ولكن تلك الدقائق ظلت في ذاكرة فرحة ولم تغادر؛ كان عمرها تسعة عشر عاماً، وهي الآن في الرابعة والعشرين، ستة أعوام مضوا في حُبها اليائس، ستة أعوام تحاول أن تنساه، وتتعلم أنه ليس من الضروري على الإطلاق أن يعيش الإنسان بجانب من يحب، ولكن بهذا اللقاء توقفت عن تعلم ذلك، وأصبحت تؤمن أن من حق كل محب أن يقتني حبيبه، لُيقربه من قلبه وأنفاسه. سارا حبيبين بجانب مجرى النهر، يحلم كل منهما بيوم يكونان فيه زوجاً وزوجة، فقررا سوياً أن يحققا هذا الحلم، وأن يصلا إلى هذا اليوم.

عادت فرحة إلى بيتها تاركة سيف في الطريق الذي بادر فيه بإعطائها حبه، فكان عطاءه بمثابة قُبلة الحياة، ألقت نفسها بفراشها سعيدة سعادة لا يمكن وصفها؛ فبعد أن كان حلماً مستحيلاً أصبح حقيقة. وسرعان ما غطت في النوم، لتستيقظ في اليوم التالي محاولة أن تسترجع أحداث لقاء أمس، وأن تتيقن من كونه حقيقة وليس مجرد حلم. وتتأكد من أنها بالفعل كانت معه، ولم ينصب لها الخيال مسرحاً لتقام عليه مسرحية من أحلامها وأوهامها. وبينما هي مستغرقة في تذكر أحداث أمس رن هاتفها فإذا به سيف، اندهشت لوجود اسمه على الهاتف وكان ذلك بالشيء المستحيل أن يحدث؛ فدائماً كان المسافر؛ المسافر بفؤادها كما غنت أم كلثوم وغريباً مسافراً بفؤادي. ردت عليه وهي خائفة من أن تسمع كلام آخر غير الذي سمعته أمس أو طلب بنسيان وعود قالها ليلاً وحين أتى النهار انتبه لخطأه. ولكنه طمأنها أنه لم يتركها تبتعد عنه مرة أخرى، وطلب منها أن تُعلم أبيها بالأمر كله وأن يحدد له موعد لمقابلته.

***

رفض أبي أن يُزوج فرحة لسيف بعد أن تعرف عليه وعلم بظروفه العسيرة الصعبة التي تمنع أي شاب من التقدم للزواج من أي فتاة، فكيف تجرأ على التقدم؟ ومن أين أتى بتلك الثقة التي جعلته يظن أنه مقبول رغم ظروفه؛ والتي تُعد أهم عيوبه، وإن كان هو كشاب

ليس به من العيوب الكثير؛ فهو الشاب الريفي القوي، الشهم، الجدير بالثقة، ومُتحمل للمسؤولية.

وضّح أبي لفرحة أنها لن تكون سعيدة معه أبداً، وأنه لن يستطع أن يأخذها إلى بر آمن أبداً، لأنه ببساطة هو نفسه ليس في بر آمن، ولا قادر على أن يكون، وأنها ستكون في مشقة دائمة. وبالرغم من ذلك تمسكت فرحة به، مؤمنة بأن البدء من الصفر يؤدي إلى نجاحات عظيمة، وأن ذلك ليس مجرد شعار يقال أو خيال، بل يُطبق ويحدث بالفعل.

أبت فرحة أن تتنازل عن حبها، وأعلنت أنها لن تغير مسار مشاعرها إلى دلو حتى يمتلئ ثم تلقي به في مجاري الأنهار، فقالت لأبي إنها تحبه وتريده، وإنه جدير بالمشقة وبتحملها لصعوبات حياته.

لم تكن تريد من الحياة إلا أن تكون بجانبه، فدفعته إلى الالتزام بوعد الزواج، حتى تستطيع أن تُسعده وأن تتحول سنوات غربته وكفاحه إلى سنوات سعيدة. رأته يستحق السعادة ولكن صعوبة الحياة وتقاعد أبيه حالا بينه وبين سعادته، فقررت أن تقف أمام كل ذلك ليكون سعيداً، ولتعمل هي على ذلك. لم يكن لديها أي رغبة سوى إسعاده، فكانت تعتذر له عن كثرة حبها واشتياقها له بكلمات أغنية عبرت عما كانت تشعر به:

"يا منى القلب، من القلب اعتذارا،

إن طغى الشوق بجنبيّا ودارَ،

فهيامي بك ما كان اختيارا"

كانت مثل طفل بريء يرى فراشة جميلة ذات ألوان لم يرها من قبل فركض خلفها. لم تكن تعلم أن من ركضت لتصل له سيقول لها "أنتِ من ألححتِ عليّ لأتزوجك، زواجنا الفاشل كان نتيجة إلحاحك"، لم تكن تعلم أن عمْر الفراشات قصير وإن طال؛ لا يتجاوز العامين. وأن زواجها حتى لم يكن بعمر الفراشات، بل كان أقصر بكثير.

كان ينقص فرحة الكثير من الوعي؛ فاستغل سيف هذا أفضل استغلال؛ لعلمه أن ظروفه لن تساعده أبداً على الزواج بأي امرأة كانت، غنية أو فقيرة ولكنه إن بقي مع فرحة فسيرق قلب أبيها لها، وسيساعده على إتمام الزواج. تزوجا بعد مرور ثلاثة أعوام خطبة، وعام كامل من إقناع أبي بتلك الزيجة التي منعت عنه النوم، وتسببت له في أزمة بينه وبين فرحة؛ كان تصميم فرحة على زواجها بسيف بمثابة الحياة أو الموت، فخاف عليها أبي، ووافق على الخطبة، وهو على يقين أنه يفعل أكبر خطأ في حياته، وربما يكون الخطأ الوحيد. كان يسمي هذا الحب سرطاناً ينمو ببيته.

خلال السنوات الثلاثة سافر سيف إلى بلد عربي بعد إتمامه سن الثلاثين مباشرة، ممّا سمح له بالحصول على شهادة إعفاء الخدمة العسكرية والتي بدونها لن يستطيع أبداً السفر خارج البلاد. وكان

إنجازه الوحيد خلال سنوات السفر هذه هو حصوله على شقة إيجار تمكنه من الزواج بها. فأكمل أبي باقي التزامات الزواج. تزوجا وأبي حزين على حال ابنته السيء، متيقناً أنه سيشاهده بعينه، سيشهده عين اليقين، بعد أن كان مجرد أفكار وتنبؤ لمدة ثلاث سنوات؛ وقد كان.

***

رأيت فرحة في أول يوم زواج، وكانت صدمتي لا توصف. كانت بداية ألم في قلبي لم يتوقف حتى الآن. اختفت فرحة التي أعرفها، الفتاة المنطلقة الطموحة والمبتسمة، وأتت بدلاً منها امرأة مكسورة وخائفة؛ كأنها طفل صغير يخاف من عقاب أمه وأبيه. لم أرَ في عينيها فرحة عروس، ولكنى رأيت حزناً وندماً شديدين، كان سيف حاداً جداً معها، يعاقبها إن أخطأت بغضبه الشديد الذي ينتج عنه فوضى كبيرة بالبيت وتركه لها. كان يعاملها معاملة لا تليق بزوجة، بل كان يعاملها كابنته التي تُعاقب على سوء تربيتها. ولم يكن يفعل شيئاً دون أن يُخبر أمه به، حتى وإن كان يخص تفاصيل زواجه وزوجته.

ذهب أسلوبه الرقيق الجذاب كأنه لم يكن، ذهبت وعوده بالاجتهاد في عمله حتى يكونا بحياة أفضل، ذهب الحب الذي كان سيد الموقف لمدة سنوات، وتبدل ليصبح ندماً وخوفاً يصرخان بعينيها وملامحها دون أن تُعلن أو تصرح بهما. والغريب أنها أنجبت منه خمسة أطفال،

ولكن من دون رغبتها، كان ينقصها خبرة ووعي في كثير من الأمور، وكان عدم استقرار الحياة بينهما سبباً في ذلك، لم يكن سيف مُقيماً مع فرحة، بل كان غائباً باستمرار ويأتي إليها نادراً، معللاً دائماً بأسباب تحتاج هي نفسها إلى تعليل.

بعد أن تزوجت كانت دائماً تعبر عن معضلة، وكانت تسميها معضلة النساء. وهي أن النساء غير مسموح لهن بشكل ضمني أن يعبرن عن أنفسهن، غير مسموح لهن أن تظهر ذواتهن للعالمين، وإن ظهرت غاضبة، مستهترة، .... والكثير من الأحوال التي تعيشها المرأة ويعيشها أي إنسان؛ عُوقبت على ذلك. فهي لابد أن تظهر أمام زوجها بابتسامة جميلة دائماً، حسنة المظهر دائماً، لديها روح الدعابة وخفة الظل دائماً، حتى وإن كانت محبطة أو متعبة أو كارهة لنفسها وللعالم، وهذا تماماً ما فعلته فرحة، أما الرجل فيكون دائماً كما هو، وكأنه يقول لمن حوله بما فيهم زوجته، أنا هكذا ومن لا يعجبه حالي يرحل. إن الرجل لديه السماح الدائم أن يكون مثلما يريد أن يكون. وامرأته إن رأته غضباناً وصوته عالٍ فلن تكون قادرة على تطليقه أو ضربه أو إهانته أو أي شيء مما يفعله الرجل بزوجته عندما تفعل هي جزءاً صغيراً من هذه الأشياء. ومن الممكن أن يُقصر الرجل في حق بيته وتقوم زوجته بإخفاء تقصيره بمهارة حتى لا يراه ولا يعلمه أحد، ولكن تقصيرها هي لا يُغتفر، ولا يظل بمكانه؛ بل يذاع وينتشر. هذه فعلاً معضلة أن تكون المرأة حبيسة رأي زوجها وانطباعه عنها،

حتى وإن لم تكن قادرة على أن تترك عنده الانطباع المرجو، والذي يجعله لا يميل إلى امرأة أخرى ويفضلها عليها.

وكلما فكرت في معضلة فرحة للمرأة فإن سَنْ هذا القانون سيكون بمثابة إطفاء هذه الشعلة المتقدة باستمرار وسيعينها على غلق ملفها الذي أُجبرت على غلقه بمفردها. وسيتغلب على عادات خطأ شب عليها ضمير الرجال.

أُدرك أن لدى النساء ما يؤلم الرجال أيضاً، وإن فتحنا قلوب بعض الرجال لوجدناها متصدعة من قسوة امرأة ما، ولكن ما في قلوب الرجال غالباً ما يكون متوارٍ ولا يعلم بوجوده أحد. والقانون إن سُن فسوف يُطبق على الجانبين؛ الرجال والنساء على حد سواء. فلن يكون هناك سيادة لرغبة أحد على الآخر، فكلاهما ربّان في مركب واحد، إن غفل أحدهما تواجد الآخر في المقصورة.

(4)

قرية التناقضات

"التنكر باتقان، والكذب بوضوح"

ولد سيف في قرية منغلقة وبدائية من قرى مصر، قريبة جداً من المدينة وملامح التطور، ولكنها بعيدة كل البعد عنها. أراضٍ ريفية جميلة تُقام عليها عادات على العكس تماماً. كان تقديس الرجل مرض متفشٍ، تقديس الرجل غاية، وإن كان الرجل فاشلاً أو متقاعساً. وأن تُذل المرأة تحت قدميْ الرجل وإن كانت ناجحة، وإن كان ذكاءها فائق.

وُلد سيف من أم ذات نسب وجمال وذكاء وحكمة وفطرة سليمة، ومن أب نشأ متشبعاً من تلك النشأة التي تجعل من الرجل ديكتاتوراً، وإن كان أُمّياً، وإن كان متكاسلاً، وإن كان بعيداً حتى عن فطرة الرجال.

كانت التربية تبدو قاسية لصعوبة الحياة بالريف، كل شيء يُصنع يدوياً، ولا توجد عناصر تُخفف حِمل عمل الأشياء، الزراعة بخطواتها حتى الحصاد بأيادي أهل الأرض.

توارى سيف خلف هذه الحياة المختلفة عن أهل المدينة ليبدو ريفياً أصيلاً وقوياً، ولكن حقيقة الأمر هي أن أمه كانت تخبئُه من كل تلك

الأعمال لتهدهده، وتطعمه، وتجلسه أمامها فرحة به، كانت تظن أنها بذلك تحبه. فشب على هذا المنوال؛ يصف الحياة الريفية الأصيلة وكأنه جزء منها، ولكن الواقع هو متوارٍ فيها، يفقه كل شيء عنها ولا يتقنه، يعلم كل شيء عنها ولا يعلمه. شب منعّماً مدللاً، مجتهداً في الادّعاء بحال ليست حاله، وقوة ليست فيه.

كان أهل الريف يستنكرون على قاطني المدينة وسائل الرفاهية والراحة ظَانين أن حياة أهل المدينة خالية من البركة وأن الكسل يأكل أجسادهم. وظل هذا الفكر حتى بعدما زحف التطور إليهم، فأصبحوا من مستخدمي الآلات المتطورة ولكن ظلت نظرة الاستنكار لأهل المدن كما هي متأصلة بتفكيرهم وحكمهم على الأمور بالرغم من أنهم يتمنون أن يصبحوا من أهل المدينة ولكنهم لا يجهروا بذلك.

وبالرغم من أن القرية كانت تنجب كل عام العديد من الرجال الكسالى المتخاذلين، إلا أن نظرة الاستنكار ظلت كما هي لأهل المدينة، كأنهم يعيشون بعار الكسل والتطور، وأهل القرى في منأى عن ذلك العار، فيكونون هم المختارين الأخيار، وأن أهل المدينة مِمن يُستوجب عليهم أن يُلحق بهم صفات مضادة لصفاتهم المختارة.

كان واقعاً لا ريب فيه؛ استنكار أهل الريف لأهل المدينة، وتقدير وحب أهل المدينة لأهل الريف. وكل منهم لا يُجيد أن يعيش حياة الآخر إلا بعد تدريب مضني، وكانت فرحة ممن قاموا بهذا التدريب فنجحت فيه. بينما سيف كان عصارة كل ذلك التناقضات، الشاب

الذي تربّى على كل هذه الذبذبة؛ يميل للمدينة ميلاً، ويستنكر صفات أهلها، ويتباهى بأنه من أهل الريف؛ ولا يجيد حياتهم.

ألصق بنفسه صفات القرية الجميلة كلها، الكرم والشهامة، ..... وكأن البشرية وُهبت تلك الصفات لأجله فقط. متناسياً أن من أهل المدينة من هم أكرم وأكثر شهامة، وأن الصفات الحميدة لم توُجد فقط لأهل الريف. شب سيف بكيان منقسم إلى نصفين متساويين؛ نصف يرنو ويتمنى حياة المدينة، ونصفه الآخر في الريف ملتصقاً به التصاقاً لا يُمكن أن يُحل؛ لأنه لا قوة له إلا بغيره، ولا رأي له إلا بعد مشورة غيره، وهكذا. وكلا النصفين قوي راسخ؛ فهو لا يستطيع أن يعيش في بيئة مختلفة بعيدة عن قريته؛ لأنه سيفقد القدرة على التموه، ولم يجد ما يتوارى فيه فيُكتشف أمره. ولا يستطيع ان يظل في قريته مختنقاً متمنياً حرية المدينة وتطورها.

التحق سيف بكلية نظرية بجامعة من جامعات مصر الأولى. حتى وصل إلى العام الثالث، ثم ظل به حتى تم رفته تماماً من الجامعة بعد استنفاذ سنوات الإعادة. خلال تلك السنوات وهو في عامه الدراسي الجامعي الثالث تعرف على فرحة في اللقاء القدري العابر، بعد أن تعرفت عليه نورا وألقت بصورته وصورة الفتاة ذات الملامح الملائكية التي عادت إلى سماءها في حادث بالطريق الساحلي. التقى بفرحة التي أصابها ما أصابها من حب وإعجاب. وكانت البداية لقصة حب غير معقولة.

قصة حب؛ بريئة بفرحة وموحشة بسيف.

قصة بُنيت على الخداع والبراءة. قصة حب عمرها سبعة أعوام، ثم انتهت بأول يوم زواج؛ لتتحول إلى قصة معاناة وصدمات وتَحمُل عاشتها فرحة منفردة بها. تحاول أن تُعيد أمجاد قصة الحب ومشاعرها فتفشل، تحاول أن تنقل جبلاً من مكانه. كانت تريد حب سيف وحنانه وهو لا يمتلكهما. لم تكن مدركة إفلاسه منهما إلا في النهاية.

كان الأمل يقود أفكارها وعواطفها، فكان كل يوم بمثابة انتظار جديد للحصول على لحظة حنان واحدة، وينتهي اليوم دون الحصول عليها، فتجدد الأمل في اليوم التالي، وهكذا عاشت تنتظر شيئاً لم تحصل عليه أبداً.

***

(5)

الحياة في الخيال حياة

"ملفات من الصعب غلقها"

لم تكن لنوافذ البيت أوانٍ من الزهور، ولم يكن للبيت حديقة تملأها الأشجار. بل كان منزلاً صغيراً متواضعاً لا شيء به على الإطلاق سوى الضروري، ينقصه الكثير من المتطلبات التي تجعل الحياة أسهل وأكثر متعة في عصر أصبح كل شيء فيه مُميكن، فلا يوحد بيت إلا وبه آلات للغسيل والكنس والتسخين والطهي والأكثر من ذلك، ولكنها لم تكن تعني لهذا البيت شيئاً، فلا يُعد عدم تواجدها نقصاناً؛ لأنه لم يكن هناك هدف لهذه الأسرة سوى الاعتناء ببعضهم البعض، الاهتمام بالنفوس كان هو المطلب الوحيد، كان اهتماماً بالسواعد والأيادي، ليس بالماكينات، وشاشات العرض التي تنتزع منا الوقت. فالوقت دائماً حق لكل واحد من الأربعة، ولم يكن ملكية فردية. كان الوفاء بعهد المسؤولية نابعاً من القلوب وليس بدافع المنطق أو الواجب، كانت حياة تصنع وجبات الطعام بأقل إمكانات، ولكنها تكون أجمل وجبات طعام، كانت مؤمنة أن ما يُصنع بحب يكون جميلاً حتماً، وأن الجمال الظاهري من أسهل ما يكون، ولكن الجمال الداخلي لا يكون إلا بالحقيقة، والحقيقة شيء من أصعب ما يكون، فمن الصعب أن يفهم الإنسان نفسه؛ فما بالنا بالآخرين. ومن

فهم نفسه وطوعها لفطرته ولغاية خلقه بات جميلاً لا يشوبه ملمح سيء أو قبيح، وبالفعل كان كل شيء في البيت جميلاً يريح العين والنفس. كانت تزين كل حجرة بالبيت بباقة صغيرة من الزهور البلاستيكية، وتترك الحجرة تتناسق بقوة سحرية ليكون تأثيرها في نفس من تواجد بها تأثيراً يجعله يألف المكان بسرعة ويحبه. يقولون إن الجمال ليس في الشيء الجميل الرقيق في ذاته، ولكن في تأثيره على النفس. تقف ساعة الحائط ذات البندول، بندقية اللون والصوت المتأرجح، طراز الخمسينات، التي روت أحداث سنوات بلغة لا يفهمها سوى من كانت عيناه عليها، ثم يروى ما سمعه منها إلى من جلس بنفس الزاوية، لتكون عيناه عليها، ولديه نفس إخلاص من روى له الحكاية من بدايتها. تحت الساعة منضدة دائرية صغيرة بنفس لون البندق؛ كأنها هي والساعة بندقتان فرتا من مستعمرة بندق ليكونا فقط بهذا البيت الجميل المتواضع ليزيداه جمالاً، ولكونهما بركن صغير رغم فخامتهما؛ فهما بذلك يزيدان ذلك البيت تواضعاً، كانت على المنضدة مطفأة سجائر كبيرة تملأ السطح، لونها سماوي كأنها قطعة من السماء هبطت بجناحين على تلك المنضدة، بهذا الركن الذي تطل عليه أشعة الشمس كل صباح من النافذة المقابلة له كأنها هي الأخرى تنظر إلى تلك العقارب التي لا تمل من الذهاب والإياب، وتبقى فيه حتى الغروب فتتركه دافئاً حتى يأتي صباح جديد.

أقف أمام نافذة حجرتي متأملاً جارنا سعد، رجل بعمر أبي بالتمام، والذي لا يمر صباح من دون أن يضع البذور للعصافير، والطعام لقطط الشارع، وجارتنا العروس الجديد التي أَحبها كل الجيران منذ أن أصبحت واحدة منهم، تهتم بهمومهم وتفرح بأفراحهم. وجاري محمود الذي ما زال يعيش في بيت والديه الذين توفيا من زمن بعيد، ولكنه ما زال يعيش معهما، فلا تفارقه ذكرى عاشها معهما. تزوج في نفس البيت وبعد أن أنجب ابنه الوحيد عبد الرحمن ماتت زوجته وحبيبة عمره ومؤنسته بنفس المكان الذي مات فيه أبوه وأمه. فتبدلت وجوه البيت فأصبح بدلاً من وجوه أناس غالين، أصبحت وجوه التعاسة والبؤس والحزن تملأ المكان. حاولنا إقناعه بترك البيت حتى لا تتجدد بداخله الأحزان ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً، فكان يقول "لن اترك البيت إلا وأنا ذاهب إليهم". تأخرت حالته الصحية بشكل ملحوظ. وعندما خضع لإجراء عملية جراحية ذهبت لمعايدته، وعند سؤالي له عن أي شيء أستطيع أن أقدمه له قال لي" اطمئن، أمي لا تتركني لحظة". يبدو أن للحياة بُعد أخر ولكن ليس الكثير منا يستطيع أن يراه ويشعر به. فدعوت له بالشفاء وتركته. واتفقت مع أبي أن نتبادل في رعايته. أما عبد الرحمن ابنه الوحيد قرر أن يترك أباه منذ أن تأخرت حالته الصحية والنفسية، حتى أنه تزوج من دون أن يُعلم أبوه الذي في أمس الحاجة لحدث يُفرحه وربما يُنسيه أي ذكرى من ذكرياته المؤلمة، حدث ربما يخفف عنه ما آل إليه حاله. ولكن عبد الرحمن تركه لمرضه ولذكرياته

البائسة التي يحيا بها بمفردة. تركه يحيا مع ذكريات انتهت ولكن عقله ووعيه يرفضان أن يُقرا بذلك، فرسما حياة على هواء البيت لا يراها إلا محمود فقط. فوقفت أتأمل رقة محمود وإخلاصه اللذان يمكن للشعراء أن يكتبوا عنها أشعاراً ممدودة، وأن يكونا بيئة خصبة لخيال الأدباء.

أما عن حال أختي فرحة التي لا تحمل من اسمها أي شيء، أتذكر آخر مرة رأيتها سعيدة، كانت ليلة زفافها منذ عشرين عاماً ومن بعدها بدأت حياتها وبكل سرعتها تجري خلف الأحزان، فلم ألحظ عليها أي سعادة؛ منذ ذلك اليوم التي كانت به عروسة بفستانها الأبيض وطرحته الطويلة تحلم بحياة سعيدة يملأها الحب والرحمة والعطف، ولكنها لم ترزق بأي منهم.

على الرغم من أنها كانت سعيدة بكل طفل ترزق به، إلا إنها لم تسعَ أبداً لأن يكون لديها أي منهم. فكان ميلاد الخمسة أطفال هبة من الله من دون أن ترغب هي أو تسعى لذلك. وُهبت ابنتها الكبرى بعد الزواج بتسعة أشهر كأنها تقول لها أنا من سأسعدك، دعكِ من أي شيء آخر، دعكِ من أبي غير الموجود، الضيف صاحب البيت، الذي إن أتى فإنه يأتي دون موعد ويذهب دون أن يقول. ثم كانت كل ولادة لها تحدث وسط أزمات ومعضلات مع زوجها سيف، أزمات تجعل من فرحتها بصغيرها تبدو مُلطخة، حتى أنها في ولادة ابنها الخامس كانت قد طُلقت بنفس اليوم التي شكت فيه بحملها، وبعد تأكدها من

حملها في اليوم التالي. كان عليها أن تزف خبر حملها مع خبر طلاقها لأبيها وأمها، ولكن كان ذلك عبئاً ثقيلاً عليها لا تستطيع تحمله، فلجأت إلى وسائل الإجهاض التي لا تعرف عنها شيئاً، فكادت أن تفارق الحياة لولا أن عناية الله كانت تصاحبها لتأتي بطفلها الخامس في ظروف نفسية سيئة، وشعور بالقهر والمهانة وعدم الاعتناء والإهمال من أكثر إنسان ينبغي عليه حمايتها، كان مختفياً قاطعاً كل وسائل الاتصال. فكانت امرأة متزوجة حامل بشهرها الثاني ومطلقة ولا تعرف كيف تصل لزوجها الذي كان من المفترض وجوده، حتى أنه لا يعرف أن الله سيهبه طفلاً جديداً.

رُزقت بخمسة من الأطفال دون مشاركة سيف بأي اعتناء أو مجهود في رعايتها ورعاية البيت والأولاد، كان أباً ولكنه بمثابة الغرباء. كان دائماً مغادراً وغير موجود؛ فكانت هي من تتحمل عبء كل شيء، ولكي تستطيع أن تكمل حياتها كان لابد لها أن تحصل على دافع للحياة فلجأت للخيال.

كانت تتخيل أن سيف متواجداً بالبيت باستمرار، وأنه يهتم بها ويحبها ويساعدها. وترفض أن تنتبه لكل أعماله القاسية، وكلما زادت أفعاله تلك، زادت هي من رحلاتها إلى الخيال. وإن واجهها أحد بالواقع وبتخاذل سيف نحوها ونحو بيته وأولاده، كانت تختلق له الأعذار حتى لا يكرهه أحد. ولكن كل أعذارها لم يصدقها أحد على الإطلاق، فكل من حولها يرون الحقيقة، وإن صارحوها لا تصدقهم.

كان الخيال يهمس لها بأذنيها "سيف موجود، بحجرة نومك يشتاق إليكِ، فأسرعي وتزيني ولا تفارقيه، وظلّي بحضنه الحنون حتى تشبعي من ذلك الحنان الصادق، الذي لا تسطيعين الحياة بدونه" فتدخل غرفتها لتكمل حوارها مع خيالها. لتخرج منها سعيدة مبتهجة قادرة على مواصلة الحياة.

واصلت الحياة بأكاذيب الخيال التي كانت تصدقها. وكان للخيال ألف عذر لهجر سيف لها، كان ضليعاً في خلق الأعذار، وماهراً في خداعها. حتى أيقنت أن سيف معذور في تركه لها، وأنها مخطئة إن تذمرت من غيابه، فلا تحزن إن كان عذره العمل ولا اهتمامه بوالدته، ولا لأنه مسافر ولا مريض، ولا متعسر في المال..... عدد لا نهائي من الأعذار المتكررة التي تحول بينه وبين تواجده معها. وبكثرة الأعذار يفيض الخيال.

ولأنه كان يعيش معها في خيالها؛ فكانت تهتم بنفسها وبالبيت في غيابه كأنه موجود، تحرص على كل شيء يحبه كأنه موجود، تمنع أي شيء يكرهه كأنه موجود، وكلما اشتاقت كلما استعادت لحظات كان فيها معها لتعيش مثلها مرة أخرى بخيالها. وهكذا عاشت فرحة عشرين عاماً. حياة يلهو بها الخيال لهواً كالطفل الصغير الذي يُفسد ما كان طيباً ونزيهاً، طفل قادر على كسر الأشياء النفيسة بلا ألم أو ندم. كان الخيال دوامة شديدة سحبتها نحو قيعان أعمق وذات ظلمة شديدة مثل قيعان البحار.

حتى بدأ سيف في مستوى آخر من القسوة، لم يعد يأتي إلى البيت سوى دقائق معدودة مما كان يعتصر قلبها اعتصاراً، فقد كانت تكتفي ببضعة أيام شهرياً حتى تقلصوا إلى بضع دقائق من الممكن أن يُعدوا على أصابع اليد الواحدة، لم يعد ينظر إليها على الإطلاق، بل كان يُدير وجهه بأي اتجاه آخر بعيد عنها. وكلما أرادت أن تحدثه تليفونياً كان يُغلق من دون أن يرد عليها بحجة أنه مشغول. زادت قسوته معها لدرجة جعلت الخيال يتقهقر ويتراجع.

***

بزيادة القسوة لم يعد للخيال وجود. وأصبحت غير قادرة حتى على استدعاء الخيال أكثر من ذلك والتمسك به. أصبحت في ألم مستمر، غير قادرة على التنفس وتحول لون وجهها إلى اللون الأزرق، تاركه لونها وروحها في سنوات بعيدة مضت.

حتى الخيال الذي كان يُعينها على الحياة تخلى عنها، فأصبحت هي والواقع بمفردها، فانقضّ عليها مثل الوحش الجائع، فنهش في راحة بالها ورغبتها في الحياة، كانت تأمل في كلمة أو نظرة حنونة، فلم تحظ بها لحظة، حتى باتت هذه اللحظة بالشيء العسير، فحُرمت منها كأنها جاه ومال وقصر كبير والكثير من المُحال.

لم تكن قادرة على الشكوى لأنها لم تشتكِ منذ البداية، خدعها الخيال ثم تركها وحيدة تلقى مصيراً كانت تخفيه عن نفسها. فإن بدأت

بالشكوى لأحد كان رده "سيف هكذا منذ البداية، ماذا جد؟، لمَ تتذمرين الآن؟ هل أُصبتِ بالجنون؟"

كنت أشعر بها، أتفهم حيرتها من غموض معاملة سيف لها. كنت أعرف سبب هذا الغموض بوضوح، ولكني لم أُصرح به قط. كنت أرى أن الحيرة أخف وطأة عليها من صدمة لا تستطيع أن تصمد بعدها أبداً، أنا من رأيت للحب قوة تجعل الإنسان قادراً على تغيير صفاته الراسخة إلى صفات أخرى، بل قادراً على شفاءه من مرض عضال، أو يحوله من إنسان قوي وضخم إلى إنسان هزيل في الجسم والفكر، رأيت فرحة تتحول من إنسان قوي فكرياً وجسدياً وعاطفياً، فأتي حبها وحولها إلى كائن ضعيف جداً لطيرانه لسنوات في أجواء مليئة بالدخان، فكان هذا الطيران بلا وضوح لمرمى البصر فكانت الحياة سوداء وغير آمنة، وغير صالحة للنضارة والسعادة.

لم يكن سيف إنساناً خائناً فقط، بل كان يتقن الخيانة الملازمة له كأنها روحه التي لا تفارقه. وبالرغم من أنه رجل ريفي يبدو عليه الأصالة والمروءة وشهامة أولاد البلد؛ تلك الصفات التي بالفعل أبهرتنا به في بداية الأمر. وظل هذا الانبهار طوال فترة الخطوبة التي استمرت ثلاثة أعوام. كان بهم مثل أبي زيد الهلالي الذي يسرق الألباب، ودخل أفئدة كل من رآه. ولكن تلك السحابة المضللة التي كانت تحجب الرؤية زالت بمجرد الزواج، ليظهر إنسان غيره تماماً

له نفس الأصل المنشأ والسيرة الذاتية ولكن طباعه وسلوكه مختلفيْن. كأنه تؤام له يحمل عكس صفاته، وتضاد خصاله.

أصبحت فرحة تخشاه كما يخشى الإنسان الصواعق. لم أنسَ سلوك سيف أثناء حظر التجوال فترة تفشي فيروس كورونا 2020، عندما كان يصل إلى البيت قبل موعد حظر التجوال، ثم تأتيه مكالمة تليفونية يقرر بعدها الخروج من البيت متحججاً بأي سبب من الصعب أن يُصدق. كانت تشعر بكرهه لها، وأن سبب المجازفة بنزوله في ساعات الحظر كان رغبته في ألّا يكون ببيتها، لا يريد منها مسكن ولا مأوى. كانت تشعر دائماً بعدم القدرة على التنفس كلما أخذها هذا الإحساس؛ أو بالأدق كلما تملكها هذا اليقين. كنت أقف في كواليس ما يحدث مدركاً أفعال سيف المخبأة، ولكني لم أتدخل لقناعتي أن سيف لن يتغير، ولن يتوقف عن ممارسة حياته بالطريقة التي وضعها لنفسه، فقد كانت متطلباته مختلفة، كان دائم البحث عن أماكن الراحة ووسائلها، شريطة ألّا يكلفه ذلك أي معاناة سوى البحث، أما نحن فنصنعها بعد السير في طرق الصبر والمشقة ولا نبحث عنها.

وبناء على هجر سيف المستمر لها، كانت تجتهد لإسعاده بمجرد تواجده بالبيت فلا يسعد، تجتهد كي ينظر إليها فلا ينظر. كان قد ذهب لُبه وكيانه بالفعل إلى مرسى كراهيته لها؛ فباءت كل محاولاتها لإرضائه بالفشل، حتى أتى ذلك اليوم الذي علمت فيه أنه متزوج من

أخرى. حين قررت أن تأخذ إجازة طويلة بمناسبة بداية شهر رمضان الكريم، لتقضيها عند أمه في قريتهم وبالفعل أتى كي يأخذهم. واتفقت معه أثناء الطريق أن هذه الإجازة لها وحدها، وغير مسموح له بالابتعاد عنها لأي سبب كان. أخذت منه الوعد وملامح التجهم على وجهه، وكأنه أُجبر على ذلك. وبالرغم من أنها انتبهت لهذا التجهم كأنها انتزعت منه شيئاً كان حريص على ألّا يعطيها إياه. إلا أنها فرحت بالوعد وبنت آمالاً عليه، وبعد وصولهم وبعد أن تناولوا طعامهم، وحان وقت انفرادهما ببعضهما وجدته يرتدي ملابسه متأهباً للخروج، فصدمت وتملكتها ثورة الغضب التي كانت تحاول السيطرة عليها منذ سنوات؛ فأخذت بالصراخ حتى أتت والدته كي ترى ماذا أحل بها:

- قُولي لي لماذا لا ينظر إليّ أبداً؟ لماذا لم تعد عيناه تقابل عينيّ؟ لماذا لم يعد يأتي إلى البيت؟ مضى عامان لم ينم ببيته سوى ليلتين، ودائم الإقامة هنا، لماذا أصبح يكرهني؟

- اهدئي يا ابنتي، اهدئي وكل شيء سيكون على ما يُرام، بإذن الله.

بالفعل هدأت فرحة ولكنها لم تتوقف عن البكاء. وكان صوت بكاءها عالياً، فاستفزه صوت بكاءها العالي ونحيبها، فعاد لأمه ليقول لها:

- قولي لها الحقيقية، قولي لها.

تعجبت فرحة ونظرت لأمه متسائلة بنظراتها الحزينة والدموع تملأ وجهها، واكتفت بسؤال عينها لأنها لم تكن قادرة على أن تتكلم، حتى قالت أمه:

- تزوج يا ابنتي، إنه متزوج من أخرى، وطول الوقت ببيتها، وأنتِ تظنين أنه هنا معي، فأنا أيضاً لم أعد أراه.

صُدمت وأُظلمت الدنيا بعينها، وذهبت إلى الحجرة التي كان يجلس بها، وكانت أول مرة تسبه (يا حيوان)، فانقض عليها ليضربها ففصلت بينهما والدته وابنتها. اتصلت فرحة بأبيها فلم تكن التغطية كافية، فإذا بأبيها يتصل على تليفون سيف وطلب أن يتكلم معها، فبمجرد أن أخذت الهاتف ركضت إلى حجرتها وأغلقت الباب بالمفتاح، وأنهت مكالمة أبيها من دون إجراء حوار، وفتحت الواتس آب وقرأت الشات بينهما المليء بالقبلات وكلام الحب المباح، فخرجت من الحجرة وهو على بابها يهددها إن لم تفتح الباب ستُدفن مكانها. أظهرت له المحادثات الخليعة وقالت:

- كل هذا الغرام وأنت حارمني من كلمة أو نظرة؟! أنا من أهدرت عمري عليك وعلى بيتك وأولادك، يا حيوان. كل هذا وأنا من كنت أتوهم أن ظروف الحياة وطلبات البيت هم سبب ملامحك المنزعجة باستمرار؟! ومزاجك المُعكر وعدم ردك على مكالماتي؟! وعدم تواجدك بالبيت؟! وأنت غارق في الغرام؟ لا أدري هل أنا امرأة غبية أم أنك حيوان؟!

لم يتمالك نفسه فانقض عليها ليبرحها ضرباً حتى وإن أمه وابنتها لم يستطيعا أن يفصلا بينهما. وبينما هو في قمة غضبه وضربه لها نطق بالطلاق "أنتِ طالق"، كل ذلك ولم يتوقف أبوها عن الاتصال من دون رد، حتى تمكنت من التحرر منه وردت على التليفون لتُعلم أبيها بما يحدث، فحاول أن يهدّئها ولكن لا جدوى من أي محاولة، فقد تبدلت الحياة بلحظة، تبدلت لحياة غير مرغوب بها على الإطلاق، حياة فاقدة معناها فلا رغبة فيها. اقترب أذان الفجر ولم يتذكر أحد السحور وسط كل هذه الأحداث المحزنة.

اتصل سيف بصديق له وطلب منه أن يأتي كي يأخذ فرحة والأولاد لبيتهم بالقاهرة. فوافق صديقه احتراماً لرغبته بالأخص بعد معرفته بشأن الطلاق. ثم أتى الفصل الأصعب من حياة فرحة، الفصل الذي علمني وعلم كل من عَلم به بأن صحيح أن البعد لا يتسبب في موتنا، ولكنه يكون كذلك حين نضطر نقلب الصفحة بمفردنا، وكي نغلق الملف تماماً نكون شبه ميتين، أو أشباه أحياء.

***

(6)

حُب

"ودائماً للحب لحظة ميلاد"

كانت لأمي (حياة) أخت كبرى تدعى (صفية)، لم تتزوج وكانت تتمنى أن يكون لديها أطفال ولكن لم يُقدّر لها ذلك أبداً. خالتي صفية كانت تعتبر أمي ابنتها وأختها الصغرى المدللة، تربَّيا معاً وبينهما في العمر ست سنوات فكانت أم صغيرة لها، أمضيا طفولة جميلة وهادئة، حتى أصبح لكل واحدة منهما ميولها العاطفية التي لا يعرف عنها أحدٌ شيئاً سواها.

عندما كانت خالتي صفية في سن السادسة عشر، تعرفت على جارها أحمد الذي كان يكبرها بستة أعوام، كان في بداية الأمر معجباً بها، فكان ينتظرها في الذهاب والإياب محاولاً أن يلاطفها أو يأخذ منها موافقة بلقاء. حتى أتى ذلك اليوم الذي وافقت فيه على مقابلته في سطوح بيته. الذي يبتعد عن بيتها ببيتين. وكانت بيوتاً على سطحها يربي النساء طيورهن.

كان أحمد شاب في الواحد والعشرين من عمره، حديث التخرج من كلية الألسن قسم لغة إنجليزية، وسيم، طويل القامة، خفيف الظل، يُجيد التعامل مع الفتيات.

تحججت خالتي صفية بدروس لم يسعفها الوقت لكتابتها أثناء اليوم الدراسي كي تذهب لمقابلة أحمد، وبالفعل ذهبت فوق السطوح، كان هناك عشة من الخشب لتربية الفراخ، وتلك العشة كان لها باب يُغلق من الداخل حتى يتمكن من يضع الطعام للفراخ ويجمع البيض أن يُغلق خلفه فلا تنتشر الفراخ بكل السطوح فيتسبب ذلك في فوضى شديدة.

وكانت البداية، كان أول لقاء.

قابل أحمد صفية بابتسامته الساحرة، وأسلوبه اللبق الجذاب:

-أهلاً بكِ يا ست الكل.

- أهلا يا أحمد.

- خير، في أي شيء تريد محادثتي؟

-محتاجك معي.

-لم أفهم يا أحمد.

-أريد أن أراكِ كل يوم وأتحدث معكِ.

- كيف لي أن أتحدث معك وأنت الأكبر؟! وقد تخرجت من الجامعة وأنا مازلت صغيرة بالمدرسة؟

- أنا أحبك.

- ما الحب؟ وماذا تريد مني؟

ألقت السؤال ولم تنتظر جواباً، بل انتفضت من الكلام الجميل فرحة به، وخجلت من فرحتها الواضحة عليها، والتي كان من الصعب أن تخفيها. فركضت للبيت وقلبها يدق بشدة، وفرحتها عارمة.

بعد ذلك اليوم تحولت خالتي إلى إنسان آخر، لم تعد تهتم بدرسها ولا بأختها الصغرى، أصبحت تتغيب كثيراً عن المدرسة، وأصبحت وجهتها اليومية سطوح بيت أحمد الذي كانت تصعده من سلم خلفي مهجور حتى لا يراها أحد. كانت تسمع كل كلمة يقولها كأنها عالم سحري، كان يحكي لها ما يقرأه من روايات، يصف لها المدن الذي يحلم بزيارتها، كان يلح عليها بالدخول إلى العشة ولكنها كانت ترفض كل مرة، وتحولت رغبته مع الوقت من الانفراد بها كي يُشبع رغبة ما بداخله إلى رغبة في رؤيتها فقط، فأصبح يكتفي بالكلام معها.

كانت الساعة اليومية لهما هي كل ما يحييان لأجله. أدرك أحمد أنه بالفعل يحبها، وماتت لديه أي رغبة تجاهها سوى حمايتها من نفسه أولاً ثم من الباقين؛ فحثّها على الاهتمام بدراستها، ووعدها إن تفوقت فسوف يأخذها معه لتكمل تعليمها خارج مصر.

جاء وقت امتحانات نهاية العام للمرحلة الثانوية، وكان عليها أن تنقطع عن لقاءه حتى تنتهي فترة الامتحانات، كي تتمكن من اجتياز الامتحانات بتفوق كما وعدته، ولتحقيق حلمهما بالسفر والعمل

والدراسة بالخارج. فبمجرد انتهاء دراستها وموافقة والدها على الزواج، سيأخذها معه خارج البلاد كي يعمل بالخارج وتكمل هي دراستها.

****

آخر يوم امتحانات ذهبت إلى مكانهما في الموعد المحدد، فلم تجده. انتظرت فلم يأتِ، انتظرت أكثر فلم يأتِ، نزلت من السلم الرئيس حتى تتمكن من الوقوف أمام شقته ربما تعرف عنه أي معلومة، ربما كان مريضاً أو انهمك في عمل أسنده له والده، وبمجرد أن وقفت أمام الشقة وجدتها مفتوحة، وسمعت صوت صراخ شديد، فأصابها الهلع، فدخلت الشقة، فوجدت طبيباً يخرج من حجرة وعلى ملامحه أسى شديد، وكلما اقتربت من تلك الحجرة تبينت من هو المُلقى على السرير حتى تيقنت؛ كان أحمد.

هل أحمد مريض؟ تساءلت في صمت، وكانت تتمنى لو تصرخ وتنادي بأعلى صوتها. لكنها لم تستطع أن تُخرج أي كلمة. سيعرف الجميع علاقتها به، ولو عرف والدها سيقتلها. فظلت شاردة في أفكارها حتى ازداد البكاء والعويل وسمعت اسم أحمد "آه يا أحمد، آه يا ضنايا، يا حبيبي، ياللي فارقتني بدري"

فهمت صفية معنى الكلام، ولكنها لم تصدق؛ فاقتربت أكثر ورأت وجه أحمد وثيابه ملطخين بالدماء، فاقتربت أكثر، وكان أحمد يرقد أمامها مذبوح العنق مفارق للحياة

****

(7)

فرمان

"الطلاق أمر بالابتعاد"

"العقل لا يعمل وحده، ومحو أثر وانتزاعه من النفس أشق مهامه"

قرر سيف أن يترك فرحة شهر حتى تهدأ، وخلال هذا الشهر تواصل مع شيخ من الشيوخ حتى يفتيه بشأن الطلاق الذي نطق به، فأفتاه الشيخ بأنه لا يقع الطلاق إن كانت العصبية والغضب متملكيْن من الزوج حين نُطقه بالطلاق، فقرر أن يراجع فرحة حتى لا يتسبب في خراب بيته، وحتى لا يقال عنه أضاع بيته من أجل امرأة، وبالفعل ذهب لفرحة كي يخبرها بفتوى الشيخ، ويخبرها بأنها ما زالت زوجة له، فسألته عن الزوجة الثانية فقال لها:

- هي زوجة لي ولن أتخلى عنها، فهي لم تذنب في شيء، كما أنني متوافق معها الوفاق الذي كنت أبحث عنه.

قالت فرحة بمنتهى الألم:

- يعني أقوم أنا بتربية الأولاد وأنت تكون مع امرأة أخرى تهنآن بحياتكما؟! حتى أنني أتلقى منك معاملة سيئة كأنني أذنبت ذنب وتعاقيني عليه!

في هدوء قاتل ولا مبالاة قال لها وكأنها لا تتألم أمام عينه:

- أنتِ غرسة وأنا اتغرستها، سوف أُكمل معكِ فقط من أجل الأولاد، وأنا مخطئ لأني لم أطلقك منذ البداية.

ثم تركها ورحل.

جلست على الكرسي المقابل للمكان الذي كان جالساً عليه، تنظر للاشيء بعد ما كان كل شيء، وتذكرت أن فكرة تقبل الموت كانت لا تزعجها على الإطلاق بمجرد أن بدأت حياتها الزوجية، حتى وإن نبأ موت أحد كانت تتقبله بفرحة لنجاة هذا المتوفي من تلك الحياة الدنيا، وتنتظر ميعادها هي أيضاً بفارغ الصبر، وأنها كانت تغبط مَن كبر عمره وتخطى سنوات زواجه متعجبة كيف عاشها. متخيلة أن كل من تزوج عانى مثلها، وأن الزواج ما هو إلا لعنة تُصيب البشر، وأن الحب ما هو إلا خدعة حتى يدخل بإرادته إلى عالم الأحزان. كأن الحزن ينتظر أن يبتسم بمجرد وقوعنا بالفخ. وكأن حزن العالم اجتمع بقلبها، ولم تعد تطيق الحياة، انطفأت روحها انطفاءة جعلت للونها لون المفارق للحياة، فظننت وقتها أني أفقدها.

تحملت ألم لا تستطيع أن تتحمله النساء، فالنساء قادرات على اجتياز أصعب المحن والمواقف، ولا تستطيع تحمل جرح في أنوثتها، وخصوصاً إن كان من زوجها، شريك حياتها، من تتطلع إلى أن يكون بجانبها وقت ضعفها وغلبة الكبر، حبها الذي تضع به سنوات عمرها، وتستثمر معه مواقف حياتها وعطاءها كله ليكون لها رصيد عنده.

كل ذلك ثم يأتي هو ويتنازل عنها في لحظة وكأن شيئاً لم يكن، ومن أجل امرأة أخرى، ومن دون حتى معاملة طيبة يحافظ بها على علاقته بها.

كان مصيرها معه قسوة غير مبررة ولا مشروعة؛ فهذا ظلم بيّن، لا أستطيع تحمله على أي امرأة، فكيف أراه بأختي الوحيدة؟! ليتني أستطيع أن أقتص منه، ولكنه والد أبناء أختي؛ ولا أريد أن أشوه صورته وصورتي أمام الصغار. فإن الله منتقم جبار، ولعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً.

***

مرت شهور من القطيعة بينهما وهي لا تتوقف عن البكاء حتى ضعف بصرها بشكل ملحوظ، فإن بكاء خمس سنوات لا يؤدي حتماً إلا للمرض وضعف البصر. لم تتوقف عن تخيله وهو في حجرة نوم امرأة أخرى يتأمل جسدها وتتأمله، تلمس كل خلية في جسده بيديها وبجسدها، تعرف كيف تجعله يذوب بين قدميها ويرتعش بين ساقيها، ويعلم أماكن بجسدها تجعلها تنتفض من لذة تقارب قوته الحنونة منها، ثم تنهار قواه فيستلقى على ظهره ممهداً ساعده لها كي تنام عليه، ثم يثنيه لتكون بين أحضانه عارية منتشية من لحظات طالما عاشتها معه.

قضت سنوات على منوال واحد محاولة أن تجعله يستفيق من كل هذه الملذات ويعود إلى أبناءه وبيته. وكان هو يزداد ابتعاداً عنها مهما

حاولت أن تجعله كالضيف منعماً بالراحة والهدوء في بيته وبين يديه كل أنواع الراحة، وما لذ وما طاب من طعام، ومعاملة طيبة ودودة ورحيمة، ومهما تأنقت وتجملت. لكنه لم يُقدر البيت الهادئ المستقر، والأطفال المتفوقين وعلى قدر كبير من الأدب؛ أطفال جميلة تتعلق بهم القلوب، فكيف له أن يهجرهم؟! فإن كانت هي امرأة لا ينجذب لها زوجها، فماذا عن الأولاد؟! فلم تفقد الأمل قط في عودته إلى بيته، لا محبة لها، بل محبة لهم.

اختار الأيام الخالية من المسؤوليات، البيت الذي لا يوجد به سوى امرأة تمنح له نفسها بأزهى صورة وأعلى إتقان لمظاهر الإثارة، فأصبح بيت فرحة وأبناءها العبء الذي يريد التخلص منه، فيزداد نفوره حتى أنه لا يأتي إلى بيته أبداً، وإن جاء لا يستطيع النظر إليها؛ كأنها كائن مشوه تنبعث منه رائحة لا يحبها أي بشري فيفر هارباً، لم ينظر قط في اتجاه تواجدها، كأنه إن نظر سيفقد بصره.

حتى أتى يوم تجرأت فيه فرحة على أن تشكوه إلى ابن عمه الأكبر المعروف بأنه كبير العائلة، والذي بدوره قام بتعنيفه وتوبيخه ومواجهته بظلمه وحقارته تجاه أهل بيته، فاستشاط سيف غضباً، فاتصل بفرحة منهالاً عليها بأصعب الألفاظ التي لا تتحملها أي امرأة، فالرجل إن قال لامرأة "أنتِ فاكرة نفسك امرأة؟!" فقد أصابها في مقتل. اشتكت فرحة لأبي، ونقلت له أخبارها المؤسفة، وأمام

عيونها صورة أبي الرافض منذ البداية، ويتردد في أذنيها صوته محذراً بأن من يسير بطريق سيف هالك لا محالة.

فقررت أنا وأبي التدخل لإنهاء معركة غير متكافئة، ظلت تخوضها فرحة بمفردها لمدة خمس سنوات، لم يدخر سيف أي معاملة سيئة إلا وقد فعلها، فاجتمعنا على رأي واحد ألا وهو المطالبة بالطلاق.

***

كان يوم الطلاق المقرر -بعد أن وافق سيف بمنتهى السرعة والسهولة، وكأنه كان منتظر هذا القرار من جانبنا، لينفذه في الحال وبصدر رحب- اليوم الأكثر حزناً على الإطلاق لفرحة. والذي تجمعت به أحزان عميقة لخمس سنوات، وندم حالك استمر عشرين عاماً على التمسك بعلاقة كانت منتهية منذ البداية، ولم يكن فيها شيء حقيقي سوى إخلاص وقف بمفرده أمام صعوبة حياة، وتخلي زوج، والكثير من المسؤوليات، السنوات المقبلة تبدو ثقيلة أمام عينيها لتراجع الأيدي التي كان من المفترض أن تحملها معها. لم يكن حزن فرحة بسبب الطلاق والفرقة الجبرية؛ فقد كان سيف غير موجود بلا مبالغة. بل كان حزنها على أمل مفقود وآلام بُثت فيها، وتحمُّل كان من المفروض أن توقفه، كان ندماً لأنها سمحت لسنوات عمرها أن تُوضع بسلة مثقوبة، ندماً على أنها لم تدقق النظر قبل اقتناءها. ندماً على أنها لم تخضع لرأي أبيها، وندماً على ثقة لم تكن في محلها.

صعدت أنا وأصدقائي شريف ومحمد ليكونا شاهديْن على أبغض ما أحل الله سبحانه وتعالى وشرعه، ثم سيف، وأخيراً فرحة. صعدنا العقار متعدد الأدوار، ولكن وجهتنا كانت بالدور الأول. لم تتخيل فرحة مقدار عبوس مكتب المأذون الذي كانت تظن أنه دائما ما يظهر بالأفراح والابتسامات المستبشرة والدعوات المتفائلة، كانت ملامح المأذون عابسة، ومكتبه كئيب، ودفتره قاتم. دخلنا جميعاً مكتب المأذون الشرعي -الإنسان الوحيد ذي المنصب الشرعي ليُقرب اثنيْن من بعضهما، أو ينزعهما عن بعضهما- تقابلت نظراتهما ببعضها أمام الغرفة الكئيبة حين توقف سيف كي يسمح لها بالدخول أولاً. كانت هناك بضع دموع بعينيه، ولكنها كانت تبدو مصطنعة، كما كانت كل حياته ومشاعره منذ البداية مصطنعة. أما دموع فرحة فكانت حقيقية كنبع نهر منجرف تعرفه الطبيعة جيداً.

انتهت خطوات الطلاق بترديد ما يود المأذون من كلاهما ترديده. ولكن كان ترديدها بالكاد مسموعاً لعلو صوت الأنين عليه، ولشدة البكاء، فبمجرد أن وضعت أخر بصمة إصبع على أوراق الدفتر الغريب الذي أعلنهما محرميْن على بعضهما وإلى الأبد.

فرت من المكان عائدة إلى بيت أبيها الذي ربت على كتفيها، وأخذها في حضنه محاولاً أن يبث فيها من قوته فلا يرى دموعها أبداً.

***

كان الطلاق أمراً بوقف الخيال الذي اعتادت عليه، والذي ساعدها في أن تُكمل حياتها، وكان هو الدواء الوحيد لمرض ظل عشرين عاماً، فلم تجد قط دواءً لحالها غيره، فلم تلجأ ولم تفكر في الطلاق طوال سنوات زواجها رغم عدم الشعور بأنها زوجة حقيقية حتى ولو ليوم واحد، فلم يكن هناك مشاركة بينهم لفعل أو لحدث، لم يكن هناك مشورة لاتخاذ قرار أو أخذ نصيحة، كانت الحياة تسير وهي تسير بها أيضاً وبيديها ضمة الخيال، كان للخيال مصافحة وقدرة على التربيت على الكتفين وحضن واسع ليس له توقيت ولا محدد المدة، حتى أصبح الطلاق واقعاً دون رغبة منها، فكيف ستتخلص من إدمانها للخيال. الخيال المضلل الذي أوهمها بأنها تحب زوجها رغم أنه لم يكن زوجاً من الأساس. جعل منها الخيال زوجة تحاول الوصول إلى زوجها، تحاول الوصول إليه لتكون له زوجة فتفشل. ربما كان سحراً صُنع لهم، أو كان تطبيق عملي للمثل المشهور (العين لا تحب الأحسن منها) ربما كان يراها أفضل منه، فهي لا تحتاج للادعاء ولا لبيئة تظهر من خلالها شخصاً محبوباً مثلما فعل حين وضع قناع الرجل الريفي الأصيل ليكسب به حب الناس. لتكون خطة خبيثة لاستغلال حبها كي يتزوج زيجة دون تعب أو مجهود، وبمجرد الزواج ظهر كل شيء على حقيقته. عاشت عشرين عاماً زوجة محبة تتحمل عيوب زوجها وظلمه لها الذي كان واضحاً للجميع إلاها، وإن لم تلجأ فرحة لهذا الخيال لكانت الرؤية أوضح وابتعدت منذ اللحظة الأولى، ولم تستمر في ركضها خلف إسعاد زوجها الذي لا ينوى أبداً

على أن يكون سعيد معها، فهي كانت له مجرد بداية، مجرد خطوة، وهو كان لها كل الحياة، الحياة التي عاشتها في الواقع وفي الخيال. ولكنها كانت تهرب من الواقع الذي يحرمها منه إلى الخيال الذي يعطيها فيه كل ما تتمنى، فقط كي تستطيع أن تكمل.

لم يعرف سيف كل ذلك عن فرحة قط؛ لأنه بمنتهى البساطة لم يكن يراها من الأساس، فكيف له أن يتذكرها أو حتى عرف عنها أي شيء بسيط؟!

كان ينتظر الوقت الذي سيتخلص منها فيه، غير مبالٍ لسنوات عمرها التي عاشتها له، له فقط، ولا مبالٍ للأطفال الذي تسبب في وجودهم.

عجباً لإنسان تأتيه الدنيا ويعرض عنها مبتغياً دنيا أخرى أجمل ولا يرى جمال ما لديه!

عجباً لقلب متألم يرى حياته في عيون من يؤلمه ولا يبالي لمقدار ألمه!

عجباً لأقدار تدفعنا نحو اللاشيء بعد ما كان بأيدينا كل شيء!

عجباً لقلب مُحب يُجبر على إفراغ محبته قهراً، فيظل فارغاً لا يوجد به أي شيء سوى حيرته لتفسير ما حدث!

(8)

الوفاء بالوعد

"الوعود رهانات مفتوحة المدة، من الممكن أن تسقط بالتقادم، ومن الممكن أن تُسرع بالوفاء"

ذهب أحمد إلى سفارة إيطاليا حتى يُتم أوراق سفره، عازماً على ألا يسافر إلا ومعه خالتي صفية -حبيبته الصغيرة طالبة النرحلة الثانوية-، وإن اعترض جدي بسبب عدم إكمال دراستها فسوف يتعهد له ويقسم بأنه سيعمل على مساعدتها في إنهاء دراستها وهي معه خارج البلاد، وأنها ستكون في أمانته، يحاسب عليها يوم القيامة.

تعجب من نفسه لتغيّر حاله، كان في البداية يرغب في التقرب من فتاة جميلة؛ ربما يحصل منها على لمسة أو قبلة أو أكثر من ذلك في عشة الفراخ. ورغم أنها كانت تأتي له بقدميها، إلا إنه لم يستطع فعل ذلك قط، كانت براءتها ورغبتها في الاستماع له ولأفكاره تجعله يشعر بالاعتزاز والامتنان لها لمجرد أنها تسمعه، انبهارها بكل حرف يقوله؛ كان بالنسبة لها نافذة على العالم، فكانت له مصدراً آمناً للثقة بنفسه ودفعه للأمام، وألّا يدع شهواته كإنسان تتغلب عليه؛ فيفقد ما هو أغلى وأطهر ما فيه.. عفته.

ساعدته خالتي من دون قصد منها ولا خطة، فقط براءتها هي التي ساعدته على الاحتفاظ بعفّته من تلك الشهوة الوقتية التي ينالها الرجل من فتاة لا تحل له، فيأتي بعدها الندم. فأراد أن يتمتع بالنعمتين، نعمة وجودها في حياته مصدراً لقوة ساحرة تدفعه لعمل ما يظنه مستحيلاً، ونعمة أن تكون حلاله فيتمتع به كما يشاء.

أحبها، أحب ذهول ملامحها في أخباره، ونظرات الفخر في عيونها حين يتحدث؛ كأنه رئيس دولة لها الكلمة العليا، وأحب لهفة لقاءها به كأنه الفارس الذي يأتي بالسعادة والأمان.

كانت خالتي بالنسبة له بداية السطر في كل فكرة، والإلهام لكل رأي، والدافع في كل خطوة. وكان يقينه بأنه كل شيء بالنسبة لها يجعله يشعر بالمسؤولية تجاهها، لذلك أخذ ذلك العهد على نفسه بأن يتولى رعايتها ومسؤولية تعليمها، حتى تحصل على كل الشهادات التي ترغب بها. احترم براءتها وحبها له، وثقتها فيه. وأن حبها وبراءتها وثقتها فيه وقفوا جميعاً أمام الشيطان عندما كان متملّكاً منه. فأحالوا بينها وبين رغبته في الاقتراب منها كي يطفئ شهواته بها؛ فظلت صفية بعفّتها، وانتصرت المروءة على شهوته.

أحب سنها الصغير الذي كان يزيده رغبة بزيادة أفكاره وخبراته وقراءاته كي يمدها بهم، فكان الدافع له للتعلم والقراءة والاطلاع أكثر.

أحبها كفتاة حسناء، بقوام لا يعرف كيف يصفه، فهو مثل جزع الشجرة الذي يخرج من الأرض بانسيابيه، انحناءاته تنحني بدقة، فإن رغب في وضع يده عليه تنساب منه رغبة أخرى في اكتشاف انحناءة تالية، حتى يكتشف كل جرف فيه.

كان جسدها كجوهرة تتلألأ أمامه، ويحلم بيوم اقتناءه، فكان عليه أن يحافظ عليه حتى يتحقق الحلم.

أحبها كمسار مضيء يسير به والأفق أمامه مليء بالنجوم، عشقها، هام بها، فدعا الله أن يحظى بها وأن يساعده الله على إسعادها.

***

أحمد الابن الوحيد لشيخين يقيمان بنفس الحي الذي يُقيم به جدي، كان بيت طيب، وهادئ. كان الساعد القوي لهذان الشيخان الضعيفان، كان يحمل هم سفره وتركهما بمفردهما. فقرر بمجرد استقراره بإيطاليا أن يُهيئ لهما إقامة مناسبة لهما ليكونا معه وتحت رعايته، وحتى يأتي الوقت المناسب لهذا وصّى أصدقاءه المقربين على التناوب في الاعتناء بهما. ولكن في حالة زواجه بصفية فهي من ستقوم بهذه المهمة، حتى يسافر ثلاثتهم معه لتكتمل الأسرة هناك، حالماً ببيت من طابقين، وحديقة يجلس بها الجد والجدة وحولهم أطفاله يلعبون، ومعه زوجته الحنونة تعتني بهم جميعاً، ويتطور هو بعمله حتى يصبح مترجماً مشهوراً.

كم تمنى أن يكون له أخ أو أخت، ولكن الله لم يُرد لهذيْن الشيخين أن يهبهما من الذرية سوى أحمد، بعد سنوات من انتظار الحمل العزيز، فكان أحمد ولم تتكرر فرص الإنجاب. حتى أتت خالتي صفية لتكون كل أحلامه وكل أخوته وعزوته التي يحلم بأن تجتمع.

***

في طريق عودته من السفارة الإيطالية وهو هائم في أحلامه التي تملأها صفية، ولم تترك فيها لحظة إلا وقد ملأتها، كان سعيداً ينتظر لحظة لقاءه بها ليلقي إليها أخبار تقدمه في إجراءات السفر، وبرغبته في مقابلة أبيها كي يطلب الزواج منها، وليعلن للجميع حبه لها، وأنه يريدها رفيقة عمره وحياته والسراج المنير الذي سيضيء الآتي من حياته، متعهداً بأن يكون لها المُعلم، والأمان، والسند، والدافع لتكمل تعليمها إلى أي مرحلة تريد، جرب العديد من الطرق كي يقول لها تلك الأخبار السعيدة، مرة يكون جاداً، ومرة راكضاً نحوها وبصوت عالٍ يخبرها، ومرة يجعلها تحزّر وتفسر، ولم يستقر على طريقة. كل ذلك حتى يرى في عينيها الفرحة، تلك الفرحة وتلك اللحظة التي تجعله يطير فرحاً.

أثناء سيره في أحد الشوارع رأي مجموعة من الشباب يبدو عليهم آثار فقدان العقل والاتزان، كأنهم للتو تناولوا مخدراً جعلهم في حالة نشوة واضحة، يتتبعون فتاة صغيرة تبيع المناديل بالطريق، كانت ذاهبة إلى المرحاض العام وحدها، فإذا بهم يتتبعونها لينفردوا بها،

ويفعلوا بها جريمتهم الشنعاء، فسار ورائهم، وقبل أن يغلقوا الباب ويصبحوا كالسباع حول تلك الفتاة البريئة ظهر لهم، كي يمنعهم عن ذلك الفعل الشنيع، فالتفوا حوله وأبرحوه ضرباً، ولم يكتفِ أحدهم بذلك بل أخرج مطواة، وبسرعة ذبحه كما يذبح المسلمين الأضحيات في عيد الأضحى.

ضحى أحمد بنفسه ليحول بين حياة فتاة بريئة وبين إيذائها -وربما موتها-، وإن لم تمت؛ فبالتأكيد سوف تعيش من دون روح أو حياة بعد تعرضها لصدمة كالتي ستحياها إن نجحوا في الانفراد بها. وبعد ذبحه فروا من المكان ليتركوه في بحر دماءه، فأسرعت الفتاة تحكي لأمها التي أسرعت للمكان الذي سُلبت فيه روحه فداءً لابنتها. فأخذت هاتفه المحمول واتصلت بآخر نمرة كان قد اتصل بها، وكانت نمرة صاحبه محمود كي تبلغه بما حدث، ليرى ماذا سيفعل في تلك الجريمة.

بالفعل أتى محمود الذي تأكد من أن أحمد بالفعل قد قابل ربه، فلا ضرورة للإسعاف ولا مشفى، فحمله لبيته، كي يقوم بإجراءات الغُسل والدفن المعهودة، وأتى بطبيب إلى البيت كي يكتب تصريح الدفن، وقد أبلغ الشرطة عن تلك الحادثة الشنيعة، وفي الوقت الذي خرج فيه الطبيب مكفهر الوجه وحزيناً، هو ذلك الوقت الذي دخلت

فيه صفية شقة أحمد لتجد أم أحمد تصرخ (يا حبيبي يا أحمد يا من فارقتني بدري). تقترب صفية وتجد أحمد مذبوحاً وملابسه مليئة بالدماء. فلم تستطع صفية تمالك نفسها، وأصيبت بالإغماء.

***

(9)

البعض من الذكريات ولكنها مؤلمة

"محو سنوات طويلة من العمر، يتطلب أيضاً عمراً طويلا"

شاهدتْ فرحة أحداث التجمهر منتظرة البت في طلبي بتجريم أدق مظاهر القسوة؛ سواء نظرة او فعل، أمام باب المحكمة في التغطيات الإعلامية، وتتذكر بصعوبة شديدة ما حدث في سنوات زواجها بعد أن قررت محو ذكريات عشرين عاماً وهذا ما يُسمى بقدان الذاكرة الانشقاقي، الآلام النفسية الشديدة من القهر البالغ والهجر المطلق والإهمال البيّن، الحياة التي عاشتها بنفس كسيرة، والتي لم تكن أبداً تتوقعها. وعندما فاض الكيل بانتفاضة ضد الجبل التي كانت تجاهد لتنقله من مكانه، وعندما لم تستطع طالبت بالطلاق؛ لأنه ببساطة لا يوجد إنسان قادر على دفع جبل حتى يتغير مكانه فيكون هذا الإنسان سعيد، بالتأكيد، فكل ما يمكنه الشعور به هو الإنهاك، فكان لابد من ارتخاء اليد قليلاً بل لابد أن تتحرر إلى مكان آخر، انتهى الزواج بزواج آخر مختلف وهو ارتباطها بأبنائها، ومنحها كل ما لديها لهم.

كل هذه الذكريات المؤلمة سبباً تُدرك به أهمية مطالبة باسم بسن هذا القانون، وأن ميلاد قانون كهذا في البلاد سيجعل من القاسي

المتجبر جباناً، ومن الرحيم الحنون مطمئناً. داعية الله أن يكون قدر أولادها أجمل من قدرها. قدرها الذي كُتب لها ثم رأيناه جميعاً أمامنا، والذي لا يمكن تغييره ولا الإضافة عليه بتجربة أُخرى للزواج. فكان لكل من يسألها راغباً في التقرب منها إجابة واحدة "أنا امرأة متزوجة خمسة، وهم أبنائي" فلا يحاول مرة أخرى. فحين أراد صديق جارنا أن يتقرب إليها، تملّك منها الخوف من تكرار الزواج، وأغلقت كل الأبواب، ومنعت أي حديث عن هذا الشأن. بَنت ألف سور بينها وبين فكرة الزواج، فلم يترك زواجها من سيف شيئاً جميلاً يجعلها تشعر برغبة في تكراره، بل كان انقباض القلب هو الشعور الوحيد الذي يسيطر عليها إن تخيلت أنها زوجة لأي رجل مهما كان صالحاً، فأصبح كل الرجال أمامها لا يعنُون لها أي شيء سوى كونهم مصدر مؤكد للضرر. وإن رغب أحدهم في الزواج بها انقبض قلبها ورفضت في الحال. فتعجبت من أمرها، كيف صبرت على حياة لم يكن بها أي شعور جميل؟ لم يكن بها أي شعور يستطيع أن ينتصر على باقي المشاعر السيئة! لم يكن هناك أي شعور يدعو للسعادة والاطمئنان! لتكون هي المنهزمة الوحيدة أمام جيش كامل قوي ما بين مشاعر الخوف ومشاعر الظلم والحزن والندم. خضوع كامل أدى للوصول إلى خاتمة ربما كانت واضحة منذ البداية.

***

استمدت فرحة قوة سحرية باغتتها فجأة محت بها ذكريات حياتها البائسة، ورغم أن هذا المحو استمر خمسة أعوام، إلا أنها بمجرد انتهاءه، عادت بروح شابة في الرابعة والعشرين من عمرها، عادت لنقطة البداية، والتي من المؤكد أنها لن تسير كما سارت من قبل؛ فوجدت بصحبتها أبناءها الخمسة، ولكنها لم تشعر نحوهم بعاطفة الأمومة فقط، بل كانت الأخت الكبرى لهم. وكان والدي هو من يتحمل مسؤوليتهم جميعاً؛ فشبوا كالأخوة في بيت واحد، بيت أبي؛ وكان جداً حنوناً.

تم محو ذكريات عشرين عاماً. وبدأت تستقبل الحياة بقلب جديد. لا أدري هل هذا ممكن؟! ولكنه حدث. الحدث الذي نراه بأفلام الخيال العلمي؛ بأن يتم مسح ذاكرة البطل لسبب ما بأجهزة وتقنيات معقدة، هو نفس الحدث الذي فعلته أختي دون أي تقنيات على مدار خمس سنوات. ونجحت نجاحاً باهراً. فكيف فعلتها؟ لا أدرى!

عادت شابة في الرابعة والعشرين، ولكن ماذا دهاها الأيام؟! أصبحت في عقلها كالأحلام. أصبحت لا تقوى على تحمل الواقع، فجعلت منه واقعاً آخر في مرسى ما تفكر وما تشعر. فلا تستطيع أن تجيب من يحدثها. كأنها تعيش حياة أخرى في خيال لم تبُحْ به لأحد، كانت دائماً شاردة الذهن، تاركة وجودها معنا، ذاهبة إلى مكان آخر. فقررت أن أخترق عزلتها لأطمئن عليها، ذهبت إلى غرفتها فوجدتها جالسة بزاوية حجرتها تبكي.

- لماذا تبكي؟

- سيف يريد أن يتعامل معي كمربية لأطفال، وإن انزعجت من سلوك أحدهم وعبرت عن انزعاجي يثور غاضباً، ويهددني بأخذهم مني، كأني مربية يريد أن يستبدلها، وإن هذا يؤلمني، فأنا لست مربية! أنا أم، وكنت يوماً ما زوجته، فلا أستطيع تحمّل هذه الإهانة. أليس لي عنده رصيد؟! ألا يوجد بذاكرته أي عطاء قدمته له يوماً؟!

- لا تتركي تصرفات كهذه -من رجل اختار أن يعيش لنفسه- تؤثر على تقييمك لنفسك، أنتِ إنسان لابد له من التعبير عن مشاعره، يجب أن تخبريه بمشاكل وأخطاء الأولاد، وتصرفه معك ليس بالجديد وعلينا أن نتوقع تكراره. وإني أراكِ دائماً شاردة الذهن، إلى أين تذهبين؟ فأنا أريد أن اطمئن عليكِ.

- أتدري شعور امرأة تختلي بزوجها قاطعة كل وسائل التواصل بباقي البشر ليكون هو الوحيد على هذه الأرض، متزينة بأجمل ما لديها، ولا تستطيع حتى أن تحصل منه على نظرة؟! مجرد نظرة! ماذا كان يراني؟ ولماذا تزوجني من الأساس؟ أتذكر سيف وقسوته. لقد كنت في مأزق لم أكن أُدركه، كنت أريد أن أُلقي بنفسي في أيدي إنسان يكرهني ويريد أن يتخلص مني بعد أن استغلني واستنفذ سنوات عمري. بمجرد أن نمى عمله وزادت الأموال بين يديه طغى. طغى عليّ وذهب إلى أخرى، وقبل أن يذهب دون عودة، سحق قلبي بإهماله ونفوره.

- لذلك يا أختي لابد أن نحمد الله على نجاتك من ذلك العذاب، فلا تحزني بعد اليوم.

- ذات يوم حلمت أنني أهبط على سلم طويل وأنا على ارتفاع عالٍ، وفجأة اختفي السلم، وبقيت واقفة على درجة سلم واحدة ومن تحتي فراغ كبير، فلم أكن قادرة حتى على التنفس، فإن تحركت أي حركة سقطت في فراغ عميق لا أرى نهايته، ناديت على سيف الذي كان يهبط معي على نفس السلم فلم أجده، كررت النداء فلم أجده، كان جسدي يرتعش من الخوف ومن كثرة ندائي على سيف، وقبل أن أسقط ظهر لي أمي وأبي، وكل منهما في جانب ممسكيْن بيديّ بإتقان، وجذباني إلى أرض آمنة لم أكن أراها. وانتهى الحلم وأنا بين أحضان أمي وأبي، حمدت الله كثيراً، ولكني تيقنت من ذلك الحلم أن سيف ما هو إلا وهم كبير أحيا معه، وأن أبي وأمي هم الحياة الحقيقية والأمان المخلص.

تركتها وذهبت غاضباً من ذلك الوغد سيف الذي أطاح بكل المعاني؛ الزواج، الأبوة، النسب... مما زاد من تصميمي على المطالبة بسن هذا القانون الذي سيقيم الحد قبل ارتكاب الذنب نفسه، بمجرد الإقدام على فعله.

***

(10)

العقد الخامس

"الشرود ليس كمان نظن، في الشرود حيوات كاملة بتقويم خاص"

في اليوم التالي دخلت حجرة فرحة فوجدتها شاردة تماماً كما تركتها بالأمس:

- أما زلتِ على شرودك؟! إن ذهبت معكِ إلى شرودك فماذا سأرى؟

- لا، أنا لست شاردة.

- إذاً هيا اخرجي من حجرتك، وانظري إلى الحياة بعين مهتمة بما تراه؛ لا بعين تنظر ولكنها لا تُبصر شيئاً مما تراه.

- حسناً، اطمئن.

لا أدري ماذا ألمّ بحالها، ولا أستطيع أن أعرف ماذا ترى في شرودها. ربما تكون استبدلت واقعها بعالم تراه عندما تتركنا وتشرد وتبقى هكذا بالساعات. فقالت لي وهي تتدبر ملابسها: أتدري يا باسم؟ ساحرة حقاً سنوات الأربعين. أستطيع أن أُدرك التغيير الذي طرأ حين مضيت فيها. أصبحت أحب كل الأشياء؛ فجميعها له قيمة كبيرة مهما كان الشيء صغيراً. أصبحت أحب كل الناس حتى من قادتهم أحوالهم لتحطيم قلبي وانهيار حياتي، فلا بأس ما دمت على قيد

الحياة؛ فأرمم قلبي وأقيم حياة من جديد؛ حياة لها سمات خاصة، استثنائية ولكن لا بأس، أستطيع أن أرى اضطرابات المراهقين والتنبؤ بأخطائهم؛ فأتقنت رعايتهم من دون معرفتهم أني موجودة بين تفكيرهم ومشاعرهم. أما عن أحلام الشباب وقوتهم فعجزت عن وصف جمال حالهم. فليتني كنت ساحرة كي أُحول أحلامهم لحقائق أجمل منها.

لم أكن ألعب مع الصغار والقطط في الطرقات من قبل ولكني أصبحت. لم أكن أدرك قيمة لحظات الضحك والسعادة التي تهب لأرواحنا حياة أخري دفينة لا ننتبه لها. ولم أكن أدرك قيمة لحظات الضعف التي بها تُخلق قوى جديدة. أما لحظات الحزن فمؤخراً أدركت أنها العدو الحقيقي لنا ولابد أن نتعلم كيفية التعامل معها كي نجعلها سبباً وبداية لأفراح ونجاحات أكثر. فالزهور الجميلة لا تتفتح ولا يُري جمال ألوانها ولا الشعور بتأثيرها إلا بعدما كانت أوراقها مغلقة بين طبقات من الظلام. كما قال محمد منير في جميلته ممكن: "أسكن بيوت الفرح أه ممكن، أسكن بيوت الحزن لا ممكن". وهكذا نحن في أوقات الحزن فلابد لنا أن نزيل طبقاته لنري النور ووقتها سنكون تماماً مثل الزهرة المتفتحة.

أدركت أننا لابد أن نتمهل على لحظات عمرنا كي نشعر بها وندرك تفاصيلها؛ ليسهل علينا استرجاعها والحياة فيها مرة أخري في أذهاننا؛ لأنها تستحق الرجوع لها مرات ومرات، فتلك هي

المراجع الموثوقة التي بها نتطور. في تلك السنوات أستطيع فيها العطاء بعد ما أخذت الكثير في السنوات الماضية.

ساحرة حقاً تلك السنوات العشر الفاصلة بين حال الشباب والقوة والاندفاع وتصارع الأحلام والرغبات وبين الهدوء والاستقرار وتراكم الخبرات، وكأني في عاصفة من جميع الأحوال. أعلم أنه متاح لي أن أركض في الطرقات، وأعلم أيضا أني لا أستطيع؛ لأني في سن الأربعين. تلك السنوات في العقد الخامس من عمري، أشعر فيها بأني أقفز علي السحاب البعيد كي ألهو مع النجوم؛ فأداعب نسمات الهواء حين تلمس وجهي وأتتبع أشعة الشمس وأنتظر وجه القمر.

قلت لها:

- ما زلتِ صغيرة يا أختي.

- أشعر بالفعل أني ما زلت صغيرة، خصوصاً بعد أن محوت عشرين عاماً من سنوات عمري، بكل ما فيهم. ولكني بالفعل تخطيت الأربعين، فأنا أعاني من اضطراب في أفكاري ومشاعري، وربما أحتاج لطبيب.

- لا، أنتِ لا تحتاجين إلى طبيب. وما تشعرين به طبيعي جداً بعد ما مررتِ به، وسرعان ما تتجاوزين أي اضطراب، أنتِ دائماً قوية وتستطيعين التغلب على أي شيء.

- أتمنى ذلك، ولكني أحب، أليس ذلك كفيل ان يجعلني أحتاج إلى طبيب؟

تعجبت من الكلمة المباغتة التي القتها علي.

- من تحبين؟ وكيف ذلك؟ ومتى؟

- أحب قلب أبيض رقيق، روح عصفور صغير يبحث عن أمه، صوته صوت عندليب يغرد لي وحدي، ضمير إنسان حقيقي يسير على الأرض. خيال إنسان، صورة بذهني وبخيالي، ولكن إن تحول هذا الخيال إلى واقع وتحول إلى إنسان حقيقي فهل هذا سيجعل منه إنساناً قاسياً أيضاً؟

- بالطبع لا، الواقع ليس له دخل ولا تأثير. فإن أراد إنسان أن يحنو سينجح في فعل ذلك، ذلك فقط إن أراد، فالأمر لا يحتاج إلى معاناة، لمجرد أن يشعر بذلك سيفعله وإن قسى مخطئاً فإنه سيعتذر بالتأكيد. وإن أراد أن يقسو فإنه سينجح أيضاً بالتأكيد.

- ولكني أصبحت أكفر بالاقتراب من أي شيء أحبه، لأني إن اقتربت منه فقدته بالتأكيد. فعلي أن أظل أحبه من بعيد.

ثم شردت وتوقف الكلام، ولكني علمت أنها تركت واقعها وربما ذهبت إلى ذلك الحلم الذي تريده فأصبح هو كل اهتمامها بجانب أولادها، وتقلصت الحياة إلى هذا الحد. شرود كامل كأنها تعيش حياة كاملة بكامل طاقتها، حياة لا أحد يراها إلاها.

- يا أختي، إن الاقتراب من شيء يُحتم علينا التفكير قبل أن نأخذ القرار بالاقتراب.

- لذلك أود أن أقول لك شيء يا باسم، ذلك الخيال الجميل الصورة التي نادراً ما تكون موجودة، والذي لم أكن أحلم بأنها موجودة على الأرض؛ موجود بالفعل لقد رأيته. ويبدو عليه الشهامة والمروءة، ولكنه يبدو عليه أنه يصغرني بالتأكيد ربما بعقد كامل.

- هل تحدثتِ معه؟

- لا

- فكيف تحبينه؟

- أراه من بعيد.

- في أي مكان ترينه؟

- أراه في شارعنا.

- أين يسكن؟

- لا أدري؟

- وكيف عرفتِ أنه رجل شهم؟

- أراه ينحني للكبير ويعطف على صغار الشارع ويساعد الناس. أراه يأتي بطعام وماء لكلب الشارع مكسور القدم، ولم يتركه حتى يطمئن أنه أكل وشرب، كما أنه ربط على قدمه جبيرة حتى يتعافى. هل تظن

أن مثل هذا الرجل موجود منه الكثير الذي يستوقفه كلب ضال جائع ومتألم.

- ولكن ذلك غير كافٍ؟ كلنا نفعل ذلك!

- لا، سيف لم يفعل ذلك على الاطلاق.

- كم مرة رأيتِه؟

- رأيته مرات قليلة، لكنه في خيالي باستمرار، رأيته فيه كثيراً، ولا أستطيع أن أفكر إلا فيه، هناك حديث بيني وبينه طوال الوقت لا ينتهي، نتكلم في أي شيء وكل شيء، ولا ننتهي. هل رأيت خيال أكثر حياة من الحياة نفسها؟! خيال يقول لك "أنا معك، بجانبك"؛ فتشعر معه بالأمان. ثم يعود إليك خوفك بمجرد رجعوك إلى الواقع؛ فيكون واقعك مارثون؛ عليك أن تسرع فيه كي ينتهي؟!

- يا أختي إن الحب المُقام على الكلمات منهار لا محالة، فما بالك بحب مبني على وهم، حب مُقام على لا شيء؟

نظرت لي وهي حزينة، ولم تجيب.

- ما اسمه؟

- كيف لي أن أعرف؟!

- أتحبين شخصاً لمجرد أنكِ رأيتِه بالشارع؟

- لا أدري، ولكني أراه دائماً في خيالي، أحبه فقط ولا أريد الاقتراب منه، أحب المعنى الذي يعيش به، أحب رحمته والتزامه، أحب كونه موجود.

- ولكنه يصغرك يا فرحة كما قلتِ.

- نعم، يبدو عليه أنه صغير السن.

- حسناً يا أختي لو رأيتِه ثانية في الشارع، قولي لي وانا سأحاول التعرف عليه.

- هل تريدين الزواج مرة أُخرى؟

- لا، بالطبع لا.

- لكنك تقولين إنكِ تحبين!

- نعم، أستطيع ان أحب ولكني لا أستطيع ان أتزوج.

- كيف ذلك؟

- الزواج يعبث بالحب ويحطمه.

- كيف؟ إن الحب إن لم يوجد قبل الزواج وُجد بعده.

- لا أدري، ولكني أومن أن اقتراب شخصين متحابين كما يُري كل منهما جمال الآخر، فإنه يجعل الرؤية أقوى، فيستطيع كل منهما رؤية قبح الأخر، فيختفي الحب في الحال، ويبتعد كل منهما عن الآخر.

- يا أختي كل إنسان به الجميل والقبيح. وعلينا أن نتقبل ذلك.

- ولكن سيف لم يتقبل قبحي حين رآه. وربما لم يرَ أي جمال لدي من الأساس.

- إن سيف لا يريد رؤية جمال أي شيء، حتى لا يرتبط به ويكون عليه مسؤولية تجاهه، سيف لا يستطيع أن يرى سوى القبيح، لأنه يجاهد في البحث عنه وينجح في ذلك، فالجمال يزعجه، والشيء الجميل يجعله يشعر بالنقصان. وإن الجمال إن لم يجد من يقدره نجى بنفسه في مكان مناسب له. وتقدير سيف ورؤيته ليست مقياساً لأي شيء. وإن حاولنا أن نرى الدنيا بعيونه لرأيناها من جانب واحد مرغمين؛ لأننا لابد أن نراها من كل الاتجاهات، وإن شعرنا بالرغبة في الأخذ فقط سنعجز عن أي عطاء، فالإنسان الأناني كيان أجوف، مهما بالغت في إعطاءه لا يمتلئ. فهيا يا أختي دعكِ من الماضي، ودققي النظر في مستقبلك، ستجدينه مليئاً بالأفراح، فلكل طفل من أطفالك أفراحه، وكلها في النهاية أفراحك أنتِ، فلن تحزني أبداً. وإن كان مقدر لكِ الزواج مرة أخرى فعلينا أن نتحرى الدقة، وأن نختار من هو مناسب وملائم لكِ، وإن كان ذلك الزوج أصغر منك بالكثير من السنوات وليس بفرق طفيفٍ فسوف يتكرر الجرح ببعده الحتمي عنكِ. فهذه طبيعة الرجال؛ النساء خُلقت لنا متعة فلن تسطيعي منع ذلك أو تغييره، ومهما اجتهدتِ في إسعاده لن تكوني أبداً مثل الفتاة الصغيرة، والتي حتماً تعيش بخياله، فأنتِ بالتأكيد لست التجربة التي

يريدها لنفسه. فدعي الأيام لخالقها، وادعي الله أن تسير تجاه الخير وتبتعد عن مسارات لا ينبغي السير فيها.

- أنت على صواب، فأنا كبيرة في السن، وكل ما كنت أمتلك من أنوثة قد اقترب على النفاذ، وبطبيعة الحال ما بقي قد تم تشويهه، وقريباً سأكون فقدت الكثير منها إلى الأبد، فكيف سيتعامل شريك لي مع هذه الأنوثة الغائبة، فحتماً سيبحث عن امرأة أخرى وسيتكرر الجرح.

ربت على كتفيها وقلت:

- كلنا إلى ذلك المصير يا أختي، من منا إلى دوام؟! فلا يوجد شيء يدوم أبداً. فكيف لكِ أن تحتفظي بأشياء لابد أن تأخذها الحياة منا؟!

فهدأت وابتسمت وزالت ملامح الغضب والانزعاج.

تركتها وأنا غير واثق مما قلته. فالذي مرت به فرحة لم يكن قط بالشيء السهل الذي من الممكن أن يمر ونتجاوزه وننساه. فقد أعطت عمرها كله لرجل لم يحافظ عليه، وما بقي من عمرها فهو ملك لأولاده. ولم يتبق لها أي فرصة في أن تحظى ببضع سعادة. وإن قلنا إن سعادتها تتمثل في سعادة أبناءها فإن ذلك ليس بالأمر الصحيح، فلكل إنسان سعادته وتعاسته. صحيح أن الأم تسعد لسعادة أولادها وتتعس بتعاستهم إلا أنها من البشر، هي إنسان مستقل له كيانه المنفرد. يشقى ويسعد. وربما تلك النماذج المذهلة من الأمهات لا

تسرح في الشقاء ولا تطلب السعادة، إنهم في حقيقة الأمر يعانين مثل فرحة ولا نعرف.

تقول إنها ما زالت تشعر بأنها لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد أن محت سنوات من عمرها، وتقول إنها تحب شاباً يصغرها وهي تخطت الأربعين، تحبه لمجرد احترامه الكبير وعطفه على الصغير، فكيف ذلك؟! شاب يصغرها ربما بأكثر من عشر أعوام، وإن كان عقله وإدراكه وخبراته يشكلون له عمراً آخر بالإضافة إلى عمره، فكيف له أن يحب سيدة في الأربعين؟! أعلم أنها تحب المعنى الذي يعيش به، فهذا من المنطقي لأنها لم ترَه ولم تتعامل معه، ومن المتوقع أن تُحب إنساناً يحمل عكس صفات سيف، فيكفيها أن ترى شخصاً حنوناً فتحبه بعد كل تلك القسوة التي انهالت عليها كبناء ضخم تصدع فسقط وأمات من كانوا به. حسناً، فمهما كان ما تشعر به، أنا سعيد بأنها أصبحت تحب ضوء الشمس وتسعد باليوم الجديد، بعد أن كانت تستقبل كل يوم برغبة في إنهاءه. وتفكر في البعد عن الحياة بالعزلة أو الانتحار. صدقت جدتي رحمها الله عندما كانت تقول لي "احذر من أن تُبكي زوجتك، واحذر من قسوة قلبك عليها، لأن في قسوة القلب بداية لنهاية كل جمال من الممكن أن تكون قد حظيت به"

عشرون عاماً قد زالوا، وشاب رؤوفف يصغرها بعقد كامل يسير بالشارع، وحب أعمى يسير عكس الطريق. فما الذي من الممكن أن يحدث؟!

***

أصبح سيف بالنسبة لها رجل عادي مثل بقية الرجال؛ لا يعني لها شيء، فإن غضب على شيء لا تبالي، وإن رقص من الفرحة لا تبالي. بعدما كانت تحزن لحزنه وتفرح لفرحه، بعدما كانت لا تقوى على أن تراه حزيناً للحظة، فتتحمل عناء التفكير فيما يمكن أن يُفرحه ويُحرره من ضيقه، وتتحمل عناء تنفيذه مهما كان صعباً وشاقاً.

والآن كيف لي أن أعرف من يسير في الشارع ويعيش بخيالها؟! وإن وجدته وعرفته، هل سيفهم أنها تحبه ولا تحبه في آنٍ واحد؟! هل سيقتنع أنها تتمناه ولا تتمناه؟!

أتفهم خوفها من الزواج، بالذات أن من سكن قلبها دون إرادة منها شاب في مقتبل حياته يريد أن يحصل من الدنيا على كل شيء، فهذا (الكل شيء) الذي لا تمتلكه يثير ذعرها، والكل شيء لم يعد من حقها. فعدم التوافق سيؤدي حتماً إلى صدمات، والصدمات ستؤدي إلى ذعر. وهي لا تريد هذا ولا ذاك. هي فقط تريد أن تحيا معه في الخيال، لأن الخيال يُطوَّع ليكون خالياً من كل شيء مؤذٍ، وبلا صدمات؛ فلن يصيبها بالذعر. كم كنت خائفاً عليها!

(11)

دعاء الطيبين

شارد الذهن يشكل حضوراً كاملاً في مكان آخر

تنادي أمي على فرحة تأخذها من شرودها المستمر:

- يا ابنتي انتبهي لنفسك وأولادك، الزمن لم يعد يرحم أحداً، الدنيا تريد من يتشبث بيقظته حتى لا يستطيع أحد أن يؤذيَه، أو يسهو عن أمر مهم فيندم. انتبهي للحياة وكفى شروداً.

- حسناً يا أمي، كنت أتخيل لو المحكمة وافقت على تجريم القسوة، هل سيحاكم سيف ويعاقب على ما فعله معي وتركه لأولاده؟

- طبعاً، وإن شاء الله المحكمة توافق ونستريح من بطش بني آدم.

- حسناً، فكيف للمظلوم إثبات الفعل الذي وقع عليه؟ فلابد دائماً من أدلة حتى لا يتجنى أحد على الآخر.

-أكيد القضاة سيضعون القانون، ومعه كيفية تطبيقه وآليات تنفيذه. مثل الشهود أو الكشف الطبي أو حتى النفسي، وبالسؤال عن السمعة، فالإنسان النبيل سمعته معروفة والإنسان القاسي من يسير يبطش في الأرض معروف أيضاً. وأظن أن الإنسان الطيب وإن وقع في مثل

هذه الأمور؛ عاد واعتذر وأصلح ما قد خربه، الإنسان الطيب لا يستطيع النوم إن بات وبداخله شعور أنه آذى أحداً بفعل أو بقول.

- هذا صحيح يا أمي. نصرك الله يا باسم. أتعلمين يا أمي؛ الكل مهتم كل الـ youtubers والإعلامين والممثلين، وهناك أخبار عن تجمهر في بلاد أخرى تؤيد مطالبة باسم، وتدعم الفكرة.

- ربنا ينصرك يا باسم يا ابني يا رب. ربنا معاك أقوى من الكل.

- خالو باسم في التليفزيون ليه يا ماما؟

-عشان يخلي القاضي يحبس كل واحد يزعل غيره، يا حبيبي.

- هو في حد زعل خالو يا ماما؟

- أكيد يا حبيبي عشان كده هو فكر في الحل ده.

- طيب يا رب القاضي يجيب لخالو حقه، يا رب.

تدخل الحاجة حبيبة التي تسكن البيت المقابل لنا، والتي اعتادت على مجالسة أمي ساعة يومياً بعد صلاة الظهر لتأنس بها وبجلستها؛ حتى لا تظل اليوم كله وحيدة ببيتها، بعد أن تزوجت ابنتها الوحيدة وسافرت لتعيش مع زوجها في مكان عمله في مدينة ساحلية، ولا تأتي إليها إلا إجازة بضعة أيام كل شتاء.

- مجبور يا باسم يا حبيبي، يا قلب ستك. بصي يا حياة لو ربنا كرم باسم والقاضي وافق هنخلي الفرحة فرحتين ونقرأ فاتحة باسم على

عليا، ولو القاضي رفض نقرأ الفاتحة ونفرح عليا وباسم وفرحة والأولاد.

- كلامك كله من عيوني، ربنا يسعد كل قلب يا رب.

كنت أعلم برغبة الحاجة حبيبة وأمي وفرحة بزواجي من علياء، وكنت موافقهم الرأي وكلي رغبة في ذلك، ولكن كان عليّ وقتها انهاء دراستي والبحث عن فرصة عمل ثم أتقدم لخطبتها.

(12)

عليا.. قلب وحيد بارواحنا" تقوم الثورات بأجسادنا، وتنتهي"

عليا رضوان، الطالبة بالصف الثالث بكلية الإعلام، جامعة القاهرة، تعيش بنفس البيت الذي تعيش به الحاجة حبيبة في الدور التالي لها مباشرة، عليا ضمن الشباب الذي شارك في ثورة 25 يناير، ووالدها الحاج رضوان رحمه الله أيضاً كان من المشاركين ومن أكبر الداعمين لها، فكان من كبار السن القليلين المؤيدين للثورة. حتى وافته المنية وهو في قلب الميدان، لم يستطع قلبه المسن أن يتأقلم مع قنابل الغاز المسيلة للدموع، الركض هنا وهناك مع باقي المتظاهرين، لم يتحمل قلبه سقوط الشباب من حوله ميتاً على أرض الميدان والشوارع الجانبية له وقد اختلف مكان القنص، فمنهم من مات برصاصة في قلبه ومنهم في عينه..... . فلم يتحمل ومات معهم إثر ذبحة صدرية بجانبهم، وماتت مطالباته في أن تكون مصر أجمل مما هي عليه، وقوانينها أكثر صرامة، كان يطالب بأن تكون مؤسسات مصر مؤسسات فعلية ومؤثرة ومتطورة؛ وليست مجرد مؤسسات قد فرحت بها الوزارة بإنشائها وكفى. كان يُطالب بالاهتمام بالتعليم طالب ومعلم، وصحة المواطنين بنظام صحي دافعه الإنسانية وليست القدرات المادية، كان يحلم بعودة الطرقات نظيفة مثل ما

كانت عليه وهو صغير، وأن ينتبه المواطنين لقيمة كل حجر في كل طريق على أرض مصر. كان له الكثير والكثير من المطالب التي لم يكن من الممكن أن تُكتب على لافتات، ولم يسعفه صوته العجوز بالهتاف بها، مات قبل حتى أن يطالب بها ولا يعرف إلامَ أدى دور الثورة بوطن يأبى دائماً أن يسمع صوت أهله؛ كأنه طفل مدلل يعصى والديه باستمرار. ولكن ظلت عليا تشارك وتناضل مع باقي الثوار ذوي النفس الطويل، واستمرت حتى آخر يوم في الثورة وفض التجمهر وخلو الميدان، ثم أخذت عزاء أبيها يوم التنحي وفرحت به فرحتين، الأولى لها والثانية له. ولكنها أصبحت وحيدة تماماً بعد أن فقدت من يرعاها. فهي يتيمة الأم منذ الولادة؛ ماتت أمها بعد أن أنجبتها مباشرة لظروف صحية متدهورة، حتى أن عليا نفسها ولدت ضعيفة السمع، ولديها تعثّر نسبي في الكلام، بينما عقلها وجسمها نما بشكل جيد بعد أن مكثت في الحضانة المخصصة للأطفال المبتسرين شهرين كاملين. حمد الله عليها الحاج رضوان ورضى بحاله، واتّخذ من عليا عائلة كاملة، وسخر كل حياته لها حتى كبرت والتحقت بكلية الإعلام طامحة في أن تكون صحفية قادرة على خلق أجواء صحفية تجعل من أخبار المواطنين المستضعفين صوتاً، لتكون هي صوتهم العالي المنادي بحقوقهم المنسية. عليا تعيش بمفردها في منزل أبيها، ولكن تحت رعاية الحاجة حبيبة، والتي أرادت أن نكون زوج وزوجة لثقتها في كوني أمين على تلك الفتاة الجميلة سيئة الحظ. وأنا لام أمانع على الاطلاق، فبمجرد تخرجنا وإيجاد وظيفة مناسبة

سنتزوج. فعندما صرحت الحاجة حبيبة في رغبتها بزواجي من عليا؛ طامحة في الاطمئنان عليها، وددت أن أعرف رأي عليا مباشرة منها، وتأكدت من قبولها ذلك، فكنا مرتبطيْن ببعضنا بذلك الوعد الشفهي، والذي ينص على أننا بمجرد أن نتخرج من كلياتنا وقبل حفلة التخرج نكون قد أعلنّا للجميع أننا مخطوبان، وبمجرد إيجاد فرصة عمل فإن عليّ أن أُقيم حفل الزواج، وأنا تعهدت بذلك، وأتعهدت بأن أحميها وأسعدها.

(13)

السير إلى السحر

"من السهل أن نسير في الطريق الخطأ، ولكن من الصعب جداً العودة منه"

أُصيبت خالتي صفية بصدمة أرقدتها في غيبوبة شهراً كاملا، وبعدما عادت لوعيها ذهبت إلى قبر حبيبها أحمد، كي تودع الحياة التي كانت تتمنى أن تحياها، كان أحمد الماضي والمستقبل الذي انتهى. فكرهت الحياة، ولم تعد الفتاة التي كانت تحلم بإكمال تعليمها، وتتزوج وتنجب أطفالاً يشبهونها ويشبهون أحمد، وما زاد من بغضها للحياة عندما علمت أن قضية أحمد حفظت ضد مجهول، ولم تستطع الشرطة الإمساك بالجُناة. الجناة الذين سلبوها كل فرحة كانت من الممكن أن تحظى بها. فتحولت إلى إنسان حزين وحاقد على كل من حوله، لم تكمل تعليمها، انعزلت بغرفتها ولم يستطع أحد أن يأخذها من عزلتها ليضعها مرة أخرى في طرق الحياة، ولم ينجح أحد أن يقنعها أن هناك شروق للشمس، وأن هناك أيام جديدة تبدأ باستمرار، وأنها لا ينبغي أن تقف عند لحظة وتترك حياة كاملة للانتهاء ينهشها بطلاقة. حزنت عليها أمي (حياة) حزناً أوشك أن يودي بها إلى نفس العزلة ونفس الحقد على الحياة، فلم يكن من السهل عليها أن ترى أختها الكبرى وصديقة عمرها تفقد حياتها بالبطيء، وأن تتحول إلى

إنسان ميت وهو على قيد الحياة، حتى ظهر أبي بعد مرور عامين من وفاة أحمد ليطلب من جدي الزواج من أمي. فرحت حياة وأملت أن تدب الأفراح بالبيت وأن تنتهي أيام الحزن، ربما تشعر صفية ببعض الأمل. وبالفعل تزوجت أمي ولكن لم تنتهِ سنوات الأحزان كما كانت تظن فزفاف أمي وأبي لم يضع بنفسةصفية أي فرحة أو أمل وكأن شيء لم يحدث .

***

لماذا يبتعد الإنسان عن الحياة وهو ما زال على قيد الحياة؟! ولماذا تتشابه شكاوى البشر؟! كلهم يبكون على ما فقدوه، ولا يبكون من الفرحة لامتلاك الكثير من النعم والأشياء، فإنهم حتماً لا يقدرون قيمت ما يمتلكون.

لماذا لا يبكون على القيمة مثلما يبكون على الممتلكات؟! إنسان كان أو حيوان أو جماد، ممتلكات وممتلكات. فهل يبكون لقيمتها أم يبكون على فقد الامتلاك؟!

عندما فقدت خالتي صفية أحمد حبيبها وزوجها المستقبلي وخططها للمستقبل، فقدت معه عقلها، ألم يكن أحمد له قيمة؟! لماذا لم تكمل نهجه في مساعدة الآخرين؟! أليست قيمة مساعدة الآخرين؟! ألم يكن عقلها له قيمة؟! الم يكن في استكمال تعليمها قيمة؟!

لماذا لم تعقل قيمة الحياة وقانونها الذي ينص نصاً على واقع لا يمكن أن يتحول إلى خيال وهو أن لا دايم إلى وجه الله وإننا منتهون لا محالة. لم تنتبه لقيمة أي نعمة او عطاء لديها ولم تتذكر هدفها وهدف أحمد في استكمال تعليمها؛ فتحافظ على ما بين يديها وتُكمل ما كان يطمحان إليه. فقدت كل شيء، فقدت حتى إيمانها. اعتراضها على موت حبيبها أفقدها الصواب لتكون شبيهة لما كانت عليه، فلم تعد صفية نفسها الحقيقية. أصبحت ترى القدر قاسياً فكرهته، وباقي البشر أشباه حيوانات لا يشعرون، والأعياد مآتم. الأخ عدوّاً، فتنازلت عن أخوة الرحم، فتمنت لأختها كسرة القلب، وذهبت الي عالم الجن والأسحار كي تسخرهم لضرر أختها لتُفقدها زوجها مثلما فقدت هي حبيبها وآمالها في الحياة.

فبدأت أمي (حياة) ترى أبي يتحول عنها، بعدما كان مقبلاً عليها. أدبر عنها وهي ما زالت عروساً لم تتجاوز شهرين. وكلما حاول أن يقترب منها انتفض خائفاً كأنه رأى الثعبان الأقرع.

فهم أبي الأمر، وفهمه لأمي، ولما كان حال خالتي الغريب واضحاً وصريحاً للجميع، تيقنوا أنها هي من لجأت لمثل هذه الأمور، فهي لم تحضر حفل الزفاف ولم تبارك لأختها، ولم تشاركها مراسم الزفاف. واحترق قلب أمي التي وجدت نفسها وحيدة في مراسم زفافها، ولها أخت كان وجودها أمراً لازماً وحتمياً؛ ولكنها أبت. كان من المفترض أن تشاركها سعادتها، ولكن حرمتها تلك المشاركة؛ بل

والأكثر كانت تفسد ما كانت تستطيع إفساده. ليلة الزفاف، فستان العروس ينتظر فتاته في غرفتها أبيض ناصعاً، مرصعاً متلألئاً، استغلت خالتي انشغال مَن في البيت بتجهيزات الزفاف، ودخلت إليه لتلطخه بالألوان الزيتية، ومزقت جزءاً منه. وكان ذلك أول كسرة قلب أمي حين رأت فستان زفافها بليلة العرس ممزقاً ملطخاً بالألوان. فاضطرت إلى أن تبتاع آخر يوم العرس صباحاً، ولم يكن مناسباً لها؛ ولكنها اضطرت له. وتوالت الأزمات، وعزلت صفية نفسها عن باقي الأسرة، وكانت تمارس طقوساً غير عادية. كل هذه الأفعال جعلت آدم على يقين أن صفية تمارس أفعال السحر كي تضر أختها ولا تسمح لها بالسعادة مثلما حُرمت منها هي.

***

علم أبي أنه يواجه شراً من نوع خاص، شر في أصله طيب، وفي وصفه الجمال الدفين. لم يغضب منها، بل كان مشفقاً عليها؛ فتقرب منها كالأخ الأكبر الحنون الذي يرى أخته على شفا حفرة من النار، فأراد أن ينقذها منها. تقرّب منها مثلما يقترب حارس الأسد منه. كانت في بداية الأمر تتجاهله وتثور عليه وتبتعد عنه. ولكنه تحمّل وثابر حتى تدعه يقترب منها ويسمع شكوى دفينة في ثنايا أعماقها. كان يحتاج أن تفتح له قلبها وتسكب ذلك الغضب الذي ينمو بداخلها مثل النباتات المتسلقة التي تتغذى على النبات الجميل الأصيل. اختار أن يجعل لها حجرة مستقلة ببيته كي تكون قريبة من أختها، ولم يخف

من أفعال تخيف بالفعل. إن طقوس الشعوذة والدجل ترهب الرجال والنساء، لكنه قوّى قلبه بالإيمان بالله. فظل يتودد إليها حتى جعلها تشعر بالأمان معه، فكان قراره قراراً جريئاً، لا يقوى عليه إنسان إلا إذا كان إيمانه قوياً وقلبه غير مزعزع، ويقينه غير مشتت.

وافقت خالتي على أن تقيم ببيتنا؛ بالطبع حتى تستمر في فرض عقوبة على أختها وزوجها على ذنب لم يقترفاه. لأنها ترى العالم بروح الظلام، تراه بعين المحروم من رؤية النور فلم يتبين ما حوله. فأصبح كل شيء أمامها بلا قيمة وبلا أهمية، وكل إنسان يليق به البغض.

كل يوم بعد عودة أبي من عمله كان يخصص وقتاً لها، يجلسان سوياً في شرفة بيتنا الواسعة، التي كانت تطل على قطعة أرض خضراء، وبها شجيرات صغيرة، وقد استعان بأحد المهندسين الزراعيين للحصول على زهور ذات ألوان فريدة ونادرة، فنجد أزهاراً باللون الأسود، وأخرى بالأزرق والأخضر. كانت جنة تماماً مثل قلبه النادر.

بدأ بتغذية عقلها بالأخبار المبهجة، والنماذج المعطاءة، يذكرها بطيبة قلب أمها وأبيها، ويشاهد معها ألبوم صور لها وهي طفلة جميلة. كان يتلو أمامها بعض آيات القرآن الكريم على سبيل الرجوع والاستعانة اليومية بالمرجع الأساسي لنا، حتى لا تفهم أنه يقرأ آيات بعينها عليها لسبب ما؛ فتبتعد عن مجالسته. كان ذكياً، أو كان موفقاً

من عند الله، أو كلاهما. استطاع أن يصبح صديقاً لها، فتبدل الحال وأصبحت تنتظر مجالسته. ولكنها ظلت تبتعد عن مجالسة أمي. تناول الوجبات مجتمعين كان مقصوراً على وجوده، وإن غاب فلا تجتمع معها على طعام. فهم أبي حاجتها للحنان، فقد كانت مثل الطفل الصغير الذي لا يقوى على ترك يد أمه؛ لأنه من دونها يشعر بالوحدة والخوف، فقرر أن يبتعد عن البيت شهراً كاملاً، واتفق مع حياة أن تحل محله، وأن تفعل معها مثل ما يفعل معها حتى تقل المسافات بينهم، فيتولد لديها مشاعر مماثلة تجاه أمي وتطمئن لها كما اطمئنت لأبي وتعود الأمور لنصابها.

اليوم الأول.

صنعت أمي كل الأصناف التي تحبها خالتي صفية، وجعلت الأغنيات المحببة لها تملأ البيت. ونادتها كما كانت تناديها قبل أعوام. ولم تقابل صفية كل هذا الجهد بالفرحة، ولكنها حزنت على غياب أبي، الذي كان بمثابة الأب والأم والصديق لها. فباءت محاولة أمي في التقرب منها بالفشل، ولكنها قالت لنفسها إنه أول يوم، وإن توالي الأحزان عليها هو السبب؛ فقدان أحمد، ثم غياب آدم الذي كان الوحيد القادر على أن يجعلها تضحك وتأكل، ليس بالشأن السهل. كان الأمل لديها قوياً جداً، وحلمها أن تعود أختها لرشدها، وأن تعود علاقتها بزوجها لطبيعتها. لم تيأس، واليقين بالله كان أقوى ما لديها. لم تتوانَ

يوم عن قراءة القرآن وقول الأذكار وتحصين البيت، وتطلب من الله أن يهدي أختها، وأن يحل السلام على بيتها، وأن تهنأ بزوجها وتنجب أطفالاً، فهي تعلم حب آدم للأطفال، ولهفته لوجود طفل صغير بالبيت كي يملأه حياة وفرحة.

اليوم الثاني.

فعلت أمي مثلما فعلت باليوم الأول، وكانت نتيجة اليوم الثاني تماماً مثل نتيجة اليوم الأول، والأمل لا يذهب، بل يزداد، اليقين بوعد الله عز وجل بـ "إن بعد العسر يسراً" لا ينتهي.

اليوم الثالث.

قررت أمي أن تدعو والدها ووالدتها إلى الغداء كي يستعيدوا ذكريات تواجدهم هم الأربعة قبل مرض خالتي وزواج أمي. وبالفعل أتى الوالدين. فرحت خالتي بتواجدهم، وتغيرت تجاه اختها، وأبدت استعدادها لأن تساعدها في شئون البيت كما كانت تفعل بالماضي، أشرق وجه خالتي، وعاد الوجه القديم.

على مائدة الطعام استعادوا ذكريات الطفولة، واستمروا على سعادتهم حتى أتى المساء، وكان على الوالدين الانصراف. طلبت خالتي منهما أن يبيتا هذه الليلة معها في حجرتها حتى تشبع منهما، أو تذهب هي معهما حتى يعود أبي. فوافق الوالدان على المبيت. كانا يعلمان أنها بحاجة إلى الحنان الذي انتظرته كاملاً من أحمد، وأصيب

هذا الانتظار بالسكون، فظل على حاله؛ مثل من توقف عن الحركة بسبب مرض عضال، فكان لابد من أحد يروي ظمأها الشديد للحنان. فقررا أن يمكثا في بيتنا بضع أيام حتى يعود أبي.

مرت الأيام وعاد أبي من عمله، وعادت لقاءاته بخالتي، واستعادت وعيها تدريجياً، حتى انتبهت إلى فعلها المشين ولجوئها إلى ساحر كي يؤذي أختها الصغرى، فذهبت كي تُبْطِل هذا الفعل، وتتوب عن هذا الكفر. ولكن ظل عذاب ضميرها يتصاعد بذلك الأذى الذي صنعته بيديها في لحظات كفر بالحياة وبمعناها مع حزنها على فقدان أحمد. فأصيبت باكتئاب شديد، وحزن أصبح متزايداً حتى أتى اليوم الذي رآها فيه الجميع جثة هامدة في حجرة نومها وقد شنقت نفسها. أنهت حياتها بيديها شنقاً، ربما لتطهر نفسها من ذنب كبير، لم يرد أحد محاسبتها عليه، فحاسبت نفسها، أو ربما لتحدد موعد لقاءها مع أحمد، ولتبدأ حياتهما معاً بعد كل ذلك الانتظار. أو لكلا الأمرين.

(14)

كلمة

"للسعادة منايع كالأنهار"

ليلة النطق بالحكم كتبت على مدونتي وعلى صفحتي على face book ما أود أن أُسمعه للقضاة، وللعالم أجمع؛ كي ينتبه كل قاسٍ لما يُخلفه من تصرفات يحسبها هينة وهي قاتلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا باسم آدم إبراهيم، البالغ من العمر واحد وعشرون عاماً، أقيم بالقاهرة، أُطالب بسنّ قانون رادع ضد كل مظاهر القسوة؛ من الدقيق منها وحتى ما تمثل في جريمة يُعاقب عليها قانون بالفعل موجود. أطالب بسن قانون يقضي على البذرة غير الصالحة من البداية؛ فلا يضيع بها مجهودنا ووقتنا، وكي لا ينتابنا الندم على غرسها. قانون بمجرد وجوده سنشعر بالأمان، عندما يكون غليظ القلب مكبّل أمامنا غير قادر على فعل أي شيء يؤذينا، وكأننا نقف أمام قفص الأسود وهو مفتوح؛ فلا نخاف ولا نخشى، لتعاطيها بين عضلاتها عقار يمنعها من الوحشية. دعوني أروي لكم بعض

الأحداث الحقيقية التي تقربنا من الوحشية، وكأننا أمام الأسود من دون أخذ ذلك العقار الذي قادر على نزع الوحشية منها.

ذات يوم من أيام العام الأخير بالصف الثالث الثانوي اعتدى زميل لي على زميل آخر؛ لأنه رفض أن يترك له مكانه، فانتظره بعد نهاية اليوم الدراسي واعتدى عليه وسلبه إحدى عينيه. تمت محاكمة ذلك الفتى، وأُلقى به في السجن المهيأ للصغار، وهناك تم الاعتداء عليه جنسياً عدة مرات من سجناء آخرين. علمتُ كل ذلك عندما قابلت والده صدفة بإحدى الطرق المحيطة بالمدرسة، وقد أُصيب أبوه بالسكري حزناً عليه؛ كما توفّيت أمه بمجرد أن قُبض عليه وأُلقى بالسجن، فلم تتحمل هول صدمتها في ابنها، الذي كانت تحلم بأن يصبح مهندساً، ولكن القدر أو قسوة قلبه هي التي جعلت كل أمنية لدى أمه تتحطم.

وأتذكر ذلك الفتى الذي لم يكتفِ بإدمانه للمخدرات، فأراد أن يجعلني مثله، وعندما رفضت أخذ يسبني بأحقر الألفاظ، وانتظرني بعيداً عن المدرسة، وهددني إن لم أتعاطَ معه المخدرات سوف يلفق لي تهمة في المدرسة. ولكني صممت على ألّا أتجرأ على المخدرات أبداً، وحتى أحمي غيري من شره قدمت به شكوى في إدارة المدرسة، حتى تم فصله تماماً من المدرسة، وأصبحت أنا مرعوب طول الوقت خوفاً من أن انتظاره لي وانتقامه مني. وهذا ما جعلني

أتفادى النزول من البيت فترة طويلة، وكدت أن أخسر عامي الدراسي.

وهناك صديقة لي تدعى فدوى، تلك الفتاة انتحرت، استيقظنا ذات يوم لم نجد فدوى، وسمعنا خبر وفاتها ونداء الصلاة عليها ليتم دفنها. ماتت من أجل الحصول على ثمن كشكول وبضعة أقلام، ولكن أباها صفعها على وجهها لتصطدم بالجدار وتقع فاقدة الحركة والوعي، وعندما أفاقت لم نعلم تحديداً ما مرت به، لكن لم يفُت الكثير حتى عرفنا ما جرى، عرفنا أنها قررت ملاقاة ربها. فما مبرر تلك القسوة؟!

إن القسوة تأتي بصاحبها أمام الضياع وتتركه، فيتوه بعيداً عن شروط الإنسانية التي تحاول جاهدة أن تحميه طول الوقت، ولكنه هو بنفسه يختار أن يخرج من نطاق حمايتها. أدعو الله أن يُلهم القاضي الصواب حتى تسير البشرية نحوه، وأن يتمتع الإنسان بلين القلب.

دعوني أقول لكم إني أحب بلادي وشعبها، وأحب خلق الله جميعاً، ولكني أكره القسوة، وإنها من قوانين الغابة، ونحن في منزلة أرقى من الحيوانات، فينبغي علينا أن نترك القسوة لمخلوقاتها. وإن طغى أحدُنا على الآخر بطبيعة البشر الخطاءة، فلينتبه لذنبه وليكفر عنه. وإن بدأ كل منا بنفسه سيحل السلام على الأرض، وستدور الرحمة بيننا ولن تنتهي.

دمتم في رعاية الله.

خلدت إلى النوم ودخلت في حلم جميل بدأ بفتاة جميلة ذات شعر أسود طويل، رموشها طويلة ولون عينيها أسود غطيس. وقفت أمامها.. لا أدري هل هي إنسان مثلنا أم جنية بملامح مصرية جميلة، كانت تحتاج إلى طعام. وحتى تستطيع أن تشتريه كان لابد لها أن تعطي للتاجر قسطيْن من السعادة، ولكنها لا تمتلك حتى ربع قسط منهم، فوقفت حيرانة لا تعرف ماذا تفعل، والجوع يقتلها؛ فبدى عليها الحزن. اقتربت منها وقلت:

- لمَ يبدو عليكِ الحزن هكذا؟

- الجوع يقتلني، وليس لدي أي قسط من السعادة حتى أشتري الطعام.

- هل تشترون الأشياء بالسعادة؟

- نعم.

فهمت أن قانون الحياة التي تحيا بها تلك الفتاة، والتي لا أعلم كيف أتيتُ إليها أو أتت هي، مختلفة عن حياتنا، فمشاعر السعادة هي نقودهم، فقررت أن أساعدها.

- ما الذي يمكنه أن يجعلك سعيدة؟

- في عالمنا نحصل على السعادة من الكبار، وأنا كبار عائلتي كلهم ماتوا في الحرب المنتهية حديثاً؛ فلم يصبح لدي أي مصدر للسعادة.

- أليس لديكم بيوت للمسنين؟

- بلى، لدينا.

ذهبنا نحن الاثنان إلى أقرب بيت للمسنين، وهناك وجدنا شيوخ كثير. وكان أول ما رأينا شيخ كبير في رعاية آخر. فيحصلان كل منهم على سعادة برعاية كل منهما للآخر. ذهب كل منا في اتجاه، بدأ كل منا في التحدث مع شخص مسن، قالت الفتاة لسيدة مسنة:

- كيف حالك يا أمي؟

- الحمد لله حمداً أكثر من المرة السابقة واستعداداً للقادمة.

- جميل جداً حمدك يا أمي، ألا تريدين شيئاً؟

- وماذا أريد بعد ما أتممت عمري هذا سوى أن أطمئن على الصغار؟! إني أرى أن الأحوال لا تتسع لهم كي يفهموا الحياة.

- وما الحياة يا أمي؟

- الحياة هي أن تتنفسي، فلا تتنفسي في مكان هواءه يرهقك، وإن وجدتِ نفسك كذلك فعليكِ ترك هذا المكان، فإنه لن يساعدك أبداً على أن تكوني حية بالفعل، بل ستكوني إنساناً يتحرك دون حياة، فتكون النباتات بها حياة أكثر منكِ.

- وكيف نعرف أنه يرهقنا؟

- إن نظرتِ في المرآة ورأيتِ نفسك التي تعرفيها فأنتِ تتنفسين والهواء يساعدك على أن تُكملي، ولكن إن نظرتِ في المرآة وتحيرتِ فأنتِ في مكان يقتل الحياة فيكِ، عليكِ أن تهربي.

- كلامك جميل يا أمي، ملأني بالسعادة، هل لي أن آتي إليكِ باستمرار؟ فكل كبار عائلتي ماتوا في تلك الحرب التي قضت على أجمل ما لدينا، ولم أعد أعرف من أين أحصل على السعادة كي أشتري الطعام.

- أنا كنت كذلك، كنت في نفس حالك، حتى أصبحت من الكبار، وأتيت إلى هنا فأصبح من السهل أن أحصل على السعادة، وأصبحت لا أحمل معاناة التفكير في كيف سأحصل على الطعام.

- هنيئاً لكِ يا أمي. ألا تريدين شيئاً؟

- شكراً لكِ، سأنتظر قدومك المرة القادمة.

أما أنا فقد ذهبت إلى شيخ عجوز يجلس بين أشجار الحديقة شارد الذهن:

- كيف حالك يا جدّي؟

- لله الحمد حتى أنتهي، وإن انتهيت أنا فإن رحمة الله لا تنتهي.

- ما لي أراك شارد الذهن يا جدي؟

- أتذكر ماضي يحزنني ولا أستطيع أن أنساه.

- وما هو يا جدي؟ احكِ لي، ربما إن حكيته ألقيت به بعيداً عن ذاكرتك.

- حسناً يا بني ما اسمك؟

- اسمي باسم

- اسمع يا باسم؛ عندما كنت في مثل عمرك لم أكن أستطيع الحصول على السعادة، وكان أبي وأمي ما زالا على قيد الحياة، بالرغم من حاجتي للسعادة وبالرغم من وجودهم إلا أني اخترت أن أتركهم، وأن أحصل عليها من كبارٍ آخرين، ذهبت إلى كبار زوجتي، وأنجبت أولادي الاثنين، وأخذتني الحياة حتى نسيت أبي وأمي، وظل كل منهما يعطي للآخر السعادة، ولكنها كانت سعادة فاسدة، ليست صالحة، فلم يستطيعا شراء طعام جيد. وظلّا هكذا حتى هلكت صحتهما وماتا. فكيف لي أن أنسى أبي وأمي وقد كنت السبب في هلاكهم؟!

- ترفق بنفسك يا جدي، إن رحمة الله واسعة.

- لذلك أطلب من الله أن يترفق بحالي، وتأتي ساعتي حتى ألحق بهما وألقاهما كي أطلب منهما أن يسامحاني.

- لكل أجل كتاب يا جدي، وكيف حال أولادك؟

- أولادي تركوني تماماً مثلما تركت أنا أمي وأبي، وذهبوا كي يحصلوا على سعادة بعيدة، فلا أعرف أين هم.

- إذاً فلتعتبرني ابنك، وأنا سآتي لك باستمرار.

- حسناً يا باسم حفظك الله من شتات التفكير وشتات الغاية، وشتات الأمور.

امتلأت بالسعادة، فعدت للفتاة التي قد أخذت قسطاً وافياً من السعادة هي الأخرى، وذهبنا كي نشتري الطعام.

- شكراً يا باسم، لولا فكرتك ما كنت تناولت الطعام، ولكان هلاكي أمراً حتمياً، لا أدري لماذا لم أُفكر في هذا الحل من قبل؟!

- ربما لأنك كنتِ تشعرين أن هذه السعادة ليست من حقك، لأنهم ليسوا من أهلك.

- تماماً يا باسم.

- ولكنهم يحتاجوننا أكثر من حاجتنا نحن للطعام.

- في عالمنا يحتاج الصغير للكبير أكثر من حاجة الكبير إليه، وإننا نشيخ بفقدهم، ولكن هناك الكثير لا ينتبهون إلا بعد فوات الأوان.

استيقظت من النوم، خائفاً على أبي فأسرعت إلى حجرته لأجده نائماً في أمان الله.

(15)

النطق بالحكم، محكمة

"فليلجم كل منا قسوته، كما يُلجم شهوته"

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والسلام على من اتبع الهدى عليه أفضل الصلاة والسلام، فإن تقوى الله هي خير زاد للميعاد، وهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي خير ما يتزود به الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ومن يتقِّ الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.
أما بعد،،،،

مطلبنا اليوم، مطلب نادر، رغم أنه أمام أعيننا منذ أن أشرقت الأرض بنور محمد صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (آل عمران: 159).

إن القسوة خلق من مخلوقات الله، وموجودة في نفوس كل البشر، وإن أراد الله محوها لفعل، ولكن الله سبحانه وتعالى خلقها فينا حتى يصل للجنة مَن انتصر عليها، أما من انساق خلفها لكانت النار مثوى له. فعلينا نحن بني البشر أن نرحم بعضنا البعض، وأن نتروّى، وأن نتحلّى باللين وننحاز له؛ حتى لا نقع فريسة الغضب والهوى، فتغلبنا أنفسنا الأمّارة بالسوء؛ فنظلم ونقهر ونبتغي ما لا يرضاه الله. فلتكن

تلك الأحداث صحوة لكل من ظلم وفسد وقسى، حتى يعود إلى رشده وصوابه، فيُعيد حق أو يجبر خاطر أو ينصر مظلوم وإن كان هذا الظلم واقعاً بيده.

وليس لنا من أمر الله أمر، فليلجم كل منا قسوته كما يلجم شهوته. وكما نحن مأمورون بأن نضع شهواتنا في حلال، أُمرنا أيضاً أن نكظم غيظنا وأن نتحرى العدل وأن نملك ألسنتنا وأيدينا عند الغضب. وليسع كل ذي سعة حاجة أخيه، ولتُؤدَّى الأمانات إلى أهلها. فلننطق جميعاً بلين، ولنرققْ قلوبنا حتى نستشعر اللين الأصيل فيها، وليكن هذا اللين هو المنارة التي تنير قلوبكم وطرقكم.

يا معشر الرجال، أنتم على الأرض لحماية النساء والأطفال وليس لقهرهم، ويا معشر النساء، أنتن الرحمة والحنان فلا تتنازلن عنهم، ويا معشر الساسة، قد أصبحتم ساسة من أجل حماية من وُليتم عليهم، فلا تنسوا. كيف يقهر الأب أهل بيته؟! وكيف لامرأة أن تقسو؟! وكيف تحلّى الساسة ثم تخلّوا؟! ولنتبع قول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام «إن المسلم لينال باللين ما لا يناله بالغلظة والشدة»، وحديثه عن ابن مسعود «ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ تحرم على كل قريب، هَيِّنٍ، ليِّنٍ، سهل» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنه بعد الاطلاع على طلب باسم آدم إبراهيم بتجريم مشاعر القسوة، وفرض عقوبة على من يتبع مشاعرة القاسية؛ فيصدر منه

قول أو نظرة أو فعل قاسٍ وما شابه من اتباع الغضب وتبعاته، والانصياع وراء سلوك معادٍ ضد غيره، وكل على مقدار شدة الضرر المسبب له. يُرفض طلب المدعو باسم آدم إبراهيم، وإن أراد الله أن يكون اللين سنته الوحيدة على الأرض لأجاد ذلك، ولكن الله قد شرع أن يكون الاختبار في تواجد الصواب وضده، حتى يتبين الرشد من الغي، والصالح من الطالح، ويثوب كل منّا على ما اختار أن ينتهج ويتبع. وعليه يتم اتخاذ العقوبات اللازمة لأي جريمة ولا تهاون في أمر من ثَبت عليه الإضرار بغيره مع وجود الأدلة وتأكيدها. وأنه من الصعب إثبات مقدار الضرر الواقع من نظرة أو فعل أو كلمة؛ فيكون بالتالي من الصعب إصدار عقوبة ضد ما لا نستطيع قياسه وإثباته. فلله الأمر من قبل ومن بعد. ولتكون دعوانا (اللهم إنا نسألك القوة لتغيير ما تعسّر علينا تغييره، وأن تُصلح شأننا كله، ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(16)

أين نذهب بعد الخذلان

إلى أين نذهب بعد خذلان أو صدمة أو فجيعة أو شعور شديد بالوحدة؟! أظن أننا نذهب إلى من يعطونا مساحات أكبر للتقرب منهم، ونبتعد قليلاً عمّن يحجمون مساحات التقارب ويقننونها، نقترب ممن باستطاعتنا أن نرتمي بأحضانهم، وليس ممن نعيد صياغة كلماتنا معهم وننتقيها قبل قولها. أناس لو كانوا معنا ما كنا عرفنا شعور الوحدة قط. بعد البت في مطالبي ورفض المحكمة لها ذهبت أمي إلى قبر خالتي صفية، أو قبر أحمد؛ فكلاهما واحد، فقد وصت خالتي بدفنها بجوار حبيبها أحمد، ربما تلقاه في عالم لا يعرف الغدر والقتل والشهوات العمياء. ذهبت أمي إلى عالم أختها الساكن، إلى قبرها كي تبرهن لها على أنها -على الدوام، ومن البداية- تسامحها، وقالت كمن يتحدث لشخص أمامه :أختي وصديقتي الحبيبة صفية، أعلم أن قلبكِ صافياً مثل اسمك، وأعلم أنه قد تكوّن بداخلك مخلوق آخر لا تعرفينه؛ تمكن منكِ وجعلكِ أداته للشر، وإن تيقظتِ وانتبهتِ له لقتلتِه بنفسك الرقيقة، وإني والله لأفتقدك، وأنتظر أن أراكِ بالجنة عروساً تزفك الملائكة لحبيبك أحمد، ليكون زفافك يا حبيبتي بالجنة، سامحكِ الله كما امتلأ قلبي بمسامحتك وكأن شيئاً لم يكن، سآتي إليكِ

على الدوام حتى تسبح روحي في الفضاء وتلقاكِ، وتأكدي أني لن أنساكِ أبداً.

وأسرع أبي عائداً إلى البيت، دخل حجرته مسرعاً وقد استعاد شريط ذكرياته في ساعات هذا اليوم الذي لم يتخيل حدوثه يوماً. كان مشتاقاً لجدي رحمه الله، جدي هو المنارة التي أرشدتنا إلى تلك المطالبة، كنت مشتاق له مثله، ولكن لا سبيل لرؤيته ولا لحضن منه يطمئننا لنعود أطفالاً في حجر من تركنا، اكتفى بأن يمسك كتاب أبيه –جدي-؛ "العمر دقيقة واحدة" كي يعيد إلى نفسه يقينه بحكمة الحياة، وأن الإنسان خُلق لغاية، خلقه ليمثل الإنسانية ومعانيها، ويحقق أهدافها. وقد فشل الكثير من الناس في تطبيق تلك الغاية، والقليل منهم من فعل. فأدرك أن هناك حكمة من وجود القليل وأهميته؛ فكل شيء قليل له أهميته، ربما لأن بداية كل شيء هو القليل، وأن كل شيء يكثر بالقليل، وأن البركة في القليل. وأن الشجرة الكبيرة كانت بذرة صغيرة تروى بماء قليل. وأن الحاكم العادل والعالم العارف كان طفلاً صغير البنية قليل المعرفة. فإن في القِلّة كثرة تحتاج إلى صبر. وحتى الصبر يبدأ قليل حتى يتمرسه الإنسان فيصبح صبوراً. رحمك الله يا جدي الحبيب، يا من تتبعت غاية الله في ملكه وفهمتها وتمسكت بها، ولم تغرك الكثرة القاسية، وتمسكت بالقلة القليلة التابعة لكل ما هو رقيق وجميل ولين؛ فاتبعك ابنك، وسار على خطاك واعتنق مذهبك.

كنت مشتاق لجدي ومفتقده تماماً مثل أبي، فذهبت إلى قبره وبكيت. لا أعلم هل أبكي من حزني على رفض المحكمة طلبي؟! أم أبكي من فرحتي لأني كنت السبب في انتباه العالم إلى المطالبة بتجريم القسوة؟! ربما يأتي يوم ويصبح هذا المطلب حقيقة ببقعة ما على الأرض. وأن ينتبه الناس للمطالبة بحقوقهم الضائعة مهما كانت صغيرة. فليس لإنسان أن ينظر شزراً لإنسان مثله دون أن يفعل شيئاً، وإن كان فعل فالحسنى أفضل. ليس لإنسان أن يؤذي غيره بكلمة دون أن يفعل شيئاً، وإن فعل فإن الحسنى أفضل. وإن الإنسان لمخطئ لا محالة، وإنه ليقسو لا محالة، ولكن عليه العودة للصواب والاعتذار. فعلى كل من يطغى على إنسان غيره أن يعود إليه بلين قلب وقول وفعل؛ حتى يكفر عما بدر منه من طغيان، فأفسد عليه حاله وباله ورؤيته لنفسه. لأنه إنسان كرمه الله، فما لهذا الطاغي يقلل من شأنه؟!

(17)

قلب جديد،،،

يبدو أن للحب بذرة ترميها الأطياف بقلوبنا، فتنمو دون إرادة منا.

أصبحت فرحة إنساناً جديداً مختلفاً تماماً عما كنا نعرفه بعد أن قررت إنهاء ذكرى حياتها السابقة، فاستطاعت بقوة سحرية أن تمحو ذكريات عشرين عاماً حتى بات تذكرها غير ممكناً، ورغم انتهاء تلك السنوات بخمسة أطفال إلا أنها بالفعل لا تتذكر إلا القليل منها، ومن حسن الحظ أنها تتذكر أجملها، كأن ذاكرة الطيبين تنتقي ما تنساه وما تتذكره؛ تتذكر أختي أول حركة لكل طفل من أطفالها في رحمها، وكل مرة كانت تتلقى نتيجة تحاليل اختبار الحمل، وكلمة positive التي كانت تركض وراءها، تتذكر الضحكات الأولى لأولادها، أول سن تظهر في فك كل منهم، تتذكر أول خطوة وأول يوم حضانة وأول يوم مدرسة. ولا تتذكر ليلة زفافها ولا تصميم ثوب الزفاف، ولا مكان الزفاف حتى، أي ذكرى لسيف معها قد محتها إرادة امرأة تعيش بجرح مفتوح؛ فتبتعد عن أي شيء من الممكن أن يلمسه فيسيل منه الدماء. أصبحت مثل النهر الذي جفّت مياهه، وينتظر مياه الأمطار لتعيد عهده القديم، أصبحت لا تُقسّم البشر إلى نوعين أخيار وأشرار، بل جميعاً بشر، ولكل واحد منهم خيره وشره، فمنهم ما زال

على قيد الحياة ومستمر في أخطاءه رغم معرفته بدنو الأجل، ولكنه يلتزم التوبة أحياناً، ومنهم من ختم الله على قلبه فلا يعرف للتوبة طريقاً. ومنهم من توفاه الله وقد أفضى لما قدم.

رغم صدمة فرحة بسيف منذ الساعات الأولى من الزواج، والقسوة المستمرة والإهمال، انتهاءً بهجره لها ولبيته وأولاده، كي يكون مع امرأة أخرى تعطيه ما يريد من متطلبات الرجال المتمثلة كلها في جسد امرأة وكفى. ولا تريد هي منه سوى أن يملأ فراغها العاطفي، وأن يكون بجانبها رجل من جديد، بعد أن طُلقت مرتين، وبعد أن ظفرت من تلك الزيجات بطفل بعمر ابنت فرحة الكبرى، وربما شقة فخمة على سفح الهرم، وسيارة بحجم جدار فاصل بين عقارين ضخمين، فكانا يتقابلان حين يشتاقان وليس على أي منهما واجبات نحو الآخر، سوى الأمور الحسية والعاطفية، لا يطلب منها أكلاته المفضلة جيدة الصنع والطهو، ولم يطلب منها ارتداء الحجاب وملابس ملتزمة والاقلاع عن التدخين. كانوا مثل قصص السينما التي يستحي المتفرج منها وتثير اشمئزازه، وإنها قضت سنوات عمرها الماضية مع رجلين آخرين، بينما فرحة قضت حياتها كلها آملة في أن تسعده. وبالرغم من كل ذلك إلا أن فرحة أصبحت قادرة على أن تراه مجرد إنسان، مجرد بشري عادي تنطبق عليه فكرتها عن البشر، إنسان به الخير والشر متجاورين، وإن طغى الشر على الخير أحياناٍ؛ فإنه يمتلك الخير رغم كل شيء. وإن رغبة سيف في

امرأة تُناسب رغبته في اجتياح كل درجات النشوة الجنسية حتى يصل لمنتهاها شعور بشري مبرر، وكذبته بأن امرأة واحدة لا تكفيه كانت كذبة إنسانية ومبررة. فبالتأكيد بقايا الإنسانية بداخله جعلته يكذب حتى لا يجرح شعور فرحة وكبرياءها. رغم أن كل الشواهد قد أثبتت أنه بالفعل اكتفى بامرأة واحدة، وهجر فرحة تماماً بعد أن عثر على ما يريد، وأنه كان إنسان خيِّر جداً بكذبته هذه التي حاول بها أن يراعي شعورها، بإخفاء بغضه لها ورغبته في الابتعاد عنها؛ اختار أن يكذب بدلاً من أن يكون إنساناً بلسان لاذع يجرحها ويجرح مشاعرها، كان على قدر كبير من الإنسانية التي تمنعه من أن يؤذيها بكلمة (أكرهك).

فمن يريد أن يتخلص من قيود ما، يجد الكذب أسهل طريقِ. وكذلك فعل سيف فكذب؛ فكانت كذبته طريقة كي لا يتسبب في جروح أقوى عند فرحة بانه لا يكتفي بامرأة واحدة. ولكن في حقيقة الأمر انه اكتفى بامرأته الجديدة التي لا تحتاج منه شيء سوى النشوة وإشباع رغبات الأنثى فيها؛ فسكن إليها كي يؤدي مهمته، ويتمتع هو أيضاً بما يستطيع أن يتمتع به، وحرم فرحة من كامل حقوقها، رغم علمه بأنها تتشوق لحرف واحد من كلمة لطيفة منه، لكنه أتقن حرمانها دون إرادة منه؛ لأنه إنسان، مجرد إنسان يخطئ، وإن خطأه بالشيء العادي الممكن تبريره ومسامحته أيضاً.

أدركت أختي أن أخطاء سيف كلها أخطاء بشرية، وربما هي نفسها وقعت بأخطاء مثلها بشكلٍ ما، كبشري ستر الله عليه فلا يعلم أخطاءه أحد سوى الله، فسامحته تماماً، وكأن كل أخطاءه وكذبه لم يكونوا أبداً لها ومعها.

***

تركت فرحة سيف في بقايا ذكريات تحتاج بعض الوقت والمجهود لتتذكرها، وذهبت لحياة أخرى أصبحت فيها امرأة أخرى، امرأة لديها القدرة على استشعار الكذب ومظاهر الخيانة، فتكونت لديها حصانة ضد التخلي؛ فلم تعد حزينة على تخلي سيف عنها. كما أنها أحبت، استطاعت أن تحب، وكان من الممكن أن تنغمر في مشاعر الكراهية والجحود، بعد صدمة أفقدتها روحها لسنوات، ولكنها صمدت.. بل وأحبت أيضاً.

أحبت طيفاً جميلاً أعادها للحياة؛ اختارت أن تحب حباً مستحيلاً غير ممكناً ولو مثقال ذرة، حباً بعيداً، ليقين غلب عليها بأن الاقتراب يبدل الحب إلى عذاب؛ عذاب يحل محل الحب كعدو مُحتل أو مغتصب جبار أو حتى كصديق ودود فكلهم سواء، فالمحصلة الوحيدة هي اختفاء الحب والعبث به حتى انتهاءه، فيصبح كراهية بقدر ما كان من حب.

صارحتني أختي بما تخبأه، صارحتني بأنها مازالت قادرة على أن تحب، وكأن الحب أصبح عمل يحتاج إلى قوة لا يمتلكها إلا القليل،

وأنها اختارت أن تحب في صمت، وأن تقف على أرض ليست صلبة ولا متماسكة، اختارت أن تقف على شفا حفرة عميقة؛ ستقع بها من أقل رجفة، ولن يكون لها نهوض أبداً، اختارت حباً خيالياً لا أثراً واقعياً له، اختارت أن تحب طيفاً مجسداً على هيئة بشر، وقد كان في حقيقة الأمر ذلك الفتى. شاب في ثلاثينات عمره مُحب للحياة، ما زال متحمس لها. ما زال يندفع، يريد أن يُعطي لحياته ويأخذ منها، يعيش أو يعمل بنفس الحي الذي نحيا به. ملامح الوجه البشوشة والروح الضحوكة الجميلة، الشباب ذاته والجمال بعينه، والحقيقة أنه لم يكن خيالاً على الإطلاق، علمتُ منها أنه حقيقة، رجل بكامل وجوده، ولكن لا يمكنها الاقتراب منه، ولا يمكنه أن يقترب منها لوجود عقد كامل فارق في أعمارهم ومستقبلهم؛ فيحول بينهم بكل قوة. لذلك أخذته لأحلامها لتبتعد به عن ذلك الواقع الغريب.

كانت تجد الأمان بوجوده البعيد واستحالة الاقتراب، وكلما تخيلت قربه انهار الأمان، ويعود لها خوفها منه، كأنه وحش كاسر؛ لابد لها أن تختبئ منه، ويعود انقباض قلبها. ذلك وصف فرحة حين صارحتني بحالها، كانت رغبتها في الاقتراب تعادل رغبتها في الابتعاد من ذلك الفتى الذي أخذته معها إلى الخيال.

في البداية كانت تراه من نافذة حجرتها؛ فلم يكن هناك قصة بعد، ثم حكت لي قصتها كاملة بمجرد اكتمالها.

(18)

لقاء قدري

فبعد أن كنت أراه يسير في شارعنا التقيت به في زفاف أحد الجيران، كان من ضمن الحضور، كان حلمي أن يكون موجوداً بين الحضور يسير ويتحدث، وقد كان. تحقق الحلم؛ فأخذت عيناي تبحث عنه إن اختفى بين الناس، فلاحظني، لاحظ أن نظراتي تلاحقه، وربما رأى اللهفة أيضاً، وعرف أمنياتي التي تجول بخاطري. وهي أن يختفي الناس من حولنا لنكون بمفردنا فأستطيع أن أسأله عن اسمه، تمنيت أن يكون هو وحده بالمكان، بل بالكون كله. وقبل أن ينتهي الزفاف اجتمعنا على مائدة واحدة، واستطعنا أن نتعارف، وعلمت اسمه، وكل من كان يشاركنا المائدة تعارفوا وتبادلوا أرقام هواتفهم، وأصبح رقم هاتفه معي. ورقم هاتفي معه. علمت عنه أنه يعيش مع والده المتقاعد، وأنه يعمل مدرساً للفنون، وأنه من يتولى رعاية والده بعد سفر أخيه الأكبر ووفاة والدته، كنت أنصت لكلماته القليلة بحرص شديد في ذلك الوقت القصير.

وهكذا كان التعارف القدري الذي كنت أنتظره. وانتهى حفل الزفاف، وذهب كل منا إلى بيته، كنت سعيدة جداً لرؤيتي من احتل فكري وخيالي، والذي لم تتوقف أحاديثي معه يوماً منذ أن رأيته، كنت أتخيل حياته وأفكاره وآراءه، وأنتظر مروره اللطيف بشارعنا،

كان حقاً لطيفاً وهو يتكلم مع كبار الحي، فشعرت أنه ذو فكر رشيد ومشاعر مرهفة، فقد كان يداعب الأطفال الصغار، ويساعد الكبار، ولم يدع فرصة لمساعدة من يحتاج الي مساعدة إلا وأقبل عليه ركضاً. لم يكن له أي تفاعل على مواقع التواصل الاجتماعي، فلم أستطع أن أعرف عنه معلومات أكثر، فقررت أن أراسله؛ ليتوقف الحوار المُقام بيني وبينه في خيالي، لربما يتحول إلى حقيقة، أو أقلع عنه تماماً.

كان طيفاً فأصبح حقيقة، كان ماراً بشارعنا بالحي وأصبح رقم هاتفه بحوزتي، فلماذا لا أراسله؟! أرسلت إليه كي أُذكره أني قابلته بحفل الزفاف منذ يومين. فأرسل إليّ يقول بالطبع إنه يتذكرني، وإنه كان حفل زفاف جميل، وإنه سعيد أنه قد سُمحت له الفرصة أن يتعرف على الكثير من قاطني الحي. دعني أروي لك الحديث كما قيل لتعلم أنه إنسان لطيف حقاً، وليّن القلب كما كان يقول لي قلبي، وأنّ تواصل فكري وخيالي معه طوال الفترة السابقة كان صادقاً.

- أنا فرحة، قد تقابلنا منذ أسبوع في فرح جارنا.

- بالطبع اتذكرك. وكنت أود أن أتحدث معكِ لأني لاحظت حزن شديد عليكِ وشرود كأنك بعالم آخر، وقد انتابني القلق عليكِ لملاحظتي أنكِ بمفردك، حتى أنك انصرفت في نهاية الحفل بمفردك.

سعدت جداً بما قاله، وشعرت أن كل أفكاري ورأيي فيه كان صحيحاً، فقلت له:

- بالفعل كنت بمفردي، وسعدت بمعرفتي بك، وكنت أود أن أسألك عن مكان قريب لتعليم الرسم للصغار، لابنتي الصغيرة؛ فهي تحب الرسم كثيراً.

- لا أعرف؛ فأنا منقول مؤخراً إلى ذلك الحي.

- لا عليك، سأبحث عن مكان مناسب. كيف حال والدك.

- في خير حال الحمد لله.

- يدوم حمدك.

- إن وجدت مكاناً بعيداً لتعليم الرسم للصغار فهل والد الطفلة يستطيع أن يذهب بها ويعيدها؟

- لا، أنا من سيقوم بذلك، فقد تم الطلاق بيننا منذ عامين.

- آسف جداً، لم أكن أعلم.

- لا عليك.

- هل أستطيع مساعدتك في أي شيء آخر؟

- شكراً لك.

- إن أردتِ المساعدة في أي شيء، فأنا موجود.

- شكراً جزيلاً.

كنت سعيدة جداً، بأول لقاء فعلي وواقعي، وأول حديث بيني وبينه. حتى تتابعت الحوارات والأحاديث وتبادل الآراء، تعاملت معه دون توخي الحذر المطلوب في العلاقات، ثم وجدت نفسي أكتب إليه رسائل رقيقة وأشعاراً كلاسيكية. تلك الأشياء التي تصرخ بالحب دون أن يُقال ولا يُكتب. في البداية لم يفهم شيئاً على الإطلاق سوى أن عليه أن يبدو لبقاً، فلجأ لكلام الشكر والامتنان طول الوقت. ولكن كلما زادت أحاديثي معه في الخيال، وكلما أردت أن تتحول هذه الأحاديث إلى حقيقة، كلما كثرت رسائلي العطوفة؛ فتزيد حيرته أكثر. ولكنه استمر في لباقة الرد ولياقة الحديث، فأخذ الحب بداخلي شكلاً أفلاطونياً أو كالأثير، أو كالعطر الذي نستشعره بحواسنا، ولا نراه ولا نلمسه. عادت لي قناعتي عن الحب؛ وهي أن الحب لا ينبغي في كل الأحوال أن يُكلّل بالزواج، بل هناك بعض أنواع من الحب تُكلّل بالدعاء والعطاء المحدود، حب فيه نُطق اسم من تحبه يُعد شهيق وزفير، ورؤيته من بعيد بمثابة مرور إلى عاطفة رقيقة جديدة، حب لا يريد أن ينمو بالالتحام وسُنة الحياة وفطرتها؛ بل ينمو بتخيل الجنة وهو فيها، حب غير مأخوذ منه، ولا يزداد بشائبة. وإن أغنيات الحب وُجدت للحب المجرد قبل أن يلبس عباءاته المختلفة، وإن ارتدى إحداها اختفى الحب بداخلها ولا يكون له وجود. وكلما شعرت بنوبات الحب أطلقت إلى خيالي العنان، فأعيش فيه أجمل قصة حب آمنة، بلا أي تقلبات ولا صراع، ومن دون اللون الحالك الذي كثيراً

ما يلون نهايات قصص الحب، فقط ذلك اللون الوردي يلون مشاعري وخيالي ورسائلي.

وبدأت رسائلي له، كل صباح بتحية رقيقة للصباح، ثم زاد عليها وصف لمشاعر ولدت حديثاً، ثم بدأت تُعلن عن نفسها، فخفت أن يُسيء ظنه بي، فقلت له في رسالة:

"لا تتحامل على عصفور الشجن الذي يقف على نافذتك كل صباح، فوقوفه عليها مكتفياً غير طامع في نفاذها لا يضرك بشيء، لكن ذلك يؤنسه؛ فاتركه يأنس حتى تتبدل نافذتك. وإن تبدلت فلا تبالي. فإنك جعلت للصباح معانٍ صيغت بلا أحرف ولا كلماتٍ ولا متنٍ، معانٍ من لغةٍ ساحرةٍ، تشدو بها الزهور وحدها، لتجعل من معانيها معانٍ لا نفهمها".

واستمرت رسائلي له، لأن حديثي معه في الخيال لم ينقطع وكان عليّ أن أُرسل منه جزءا، إلى الواقع، وأتذكر رسالة منهم:

"أستطيع أن أرى أحاسيسك كلها، ليس لأن لدي قدرة على نسج الخيال، بل لأن المسافات بيني وبينك قد أصبحت برقم غير موجود، وإن وُجد فهو ليس ذا قيمة غير الرقم صفر. وهذه المسافة غير الموجودة جعلت مني مسافرةٌ إليك، لأراك وأشعر بك وأفهمك وأنا في مكاني. لكني في سفري هذا ليس لي يدان كي أبادلك شيئاً، ولا قدمان لأسير معك في طريق، ولا لسان كي أبادلك حديثاً سافرت من أجله. ثم أعود بسهولة إلى مكاني وأتركك، لأجد نفسي لا أهتم إلا

بما رأيته، فيتولد بعمق الأحاديث التي تجرى بين مشاعري دعاء وتمني بأن يحقق الله ما ترنو إليه. ثم أُعيد السفر فَيعاد الدعاء والتمني.

وإني أحتاج قدراً من الراحة بعدما أرهقني هذا السفر، برغم قصر المدة التي أسافر فيها ولكني لا أحب هذه الراحة.

تستطيع أن ترى الصدق يقفز فرحاً بين كلمات هذه الرسالة، وأن تشعر بالإخلاص لا يترك مسافة بين الكلمات. كما أن هناك الكثير والكثير ولكني بطبيعة حال البشر التي فرضت عليه؛ وهي أن الأشياء المادية قدراتها محدودة إن أرادت وصف اللا محدود، وإني بين عشية وضحاها أُلقيت بداخل شيء يشبه الثقب الأسود الذي نود معرفة الكثير عنه، وأن الشيء الوحيد الظاهر عنه دون عناء منا هو أنه بقوة جذب لا حدود لها، تماماً مثل حالي معك.

كان يقرأ دون رد ودون أي شيء، وكنت أكتفي بقراءته لِما أشعر وأكتب؛ فأكتب أكثر، وأنا مطمئنة لكونه يُقدر كل حرف كُتب، وكل إحساس انتقل مع الكلمات. كانت قراءته لرسائلي أو وضع قلب على الرسالة بمثابة كلمة أحبك، فأبادله الحب بكتابات أخرى.

ثم كان عليّ أن أفهم ماذا أريد من الخيال، وماذا أريد من الواقع، ماذا أريد من ذلك الطيف الذي أحبه، والذي أُقنع نفسي بأنه مجرد طيف ثم أصطدم بوجوده كإنسان من لحم ودم، يتأثر بكل ما أشعر وبكل ما أكتب، وكل ما تنم عنه أفعالي معه، كنت أريده أن يتفهم

ذلك، يتفهم أنني في حلم ما، فلا ينتبه ولا يُعيره اهتماماً. كنت أتمنى إن أرسلت له قصيدة أن يتفهم أني أُرسل إليه بالفعل، ولكن بعالم من الأحلام وليس بهذا الواقع، كنت أتمنى أن يفهم أني أحبه، ولكني لا أحبه كما يفهم. صحيح أن الأيام واقعاً نعيشه، ولكنها ليست كذلك بكل الأحوال، فالأيام قد تكون حلماً أيضاً نعيش به أو يعيش هو بنا، ويصنع بنا ما يشاء، ويركض هنا وهناك، ويجعلنا نركض معه. كنت أترك البيت باحثة عن بيته حاملة باقة من الزهور، ربما يرتطم كتفي بكتفه أثناء عبور نفس الممر، فتسقط عليه الزهور؛ وتملأ ملابسه عوضاً عن إعطاءه إياها بكثير من الخجل، ولكني قط لم أجده.

أشعر أني متصلة الذهن برجل. رجل مختلف عن باقي الرجال، فإن للرجال صفات جميلة بالتأكيد. ولكنه الرجل الوحيد الذي يحملها ويرهقه حملها لوفرتها؛ فلا يستطيع أن يتجانس مع غيره من الرجال، وبالكاد ما يفعل؛ لتباينهم عنه ولقِلة ما لديهم من الصفات الجميلة الخاصة بهم. كنت أشعر أنه يراني بكل الأوقات، ويعلم بحزني ويحزن عليه، ويفرح لفرحتي. كنت أعلم أن بقلبه النقي يستطيع أن يشعر بي حتى ولو كان لا يعرف مكاني.

ولأني كنت أخاف من أن يسيء الظن بي، وأخاف أن يراني امرأة سيئة الطبع والأفعال، أرسلت إليه آخر رسالة حتى ينتهي القلق:

"لن أستطع أن أكتب إليك بعد الآن. وكنت أود أن أظل أكتب، وكان في كتاباتي لك ما يمثل الذهاب إلى أجمل أماكن الأرض لأمكث

فيها بعض الوقت ثم أتركها بأمان؛ ولكن الطرقات أبت فأُغلقت. لكنك ستبقى بين كلمات كل ما أكتب، فتستطيع أن تشعر ببريقك فيها كما استشعرت أنا.

سيأتيك وهج يقين أنك من يملأ السطور إن كُتبت، وإن لم تُكتب فإنك موجود بكامل حالي. وإن انتهت الكلمات لن ينتهي ما يريد أن يُكتَب.

وكانت تلك آخر رسالة كتبتها له.

اهتممت بذلك الطيف الجميل اهتماماً فاق حدود المعقول حتى حدود النهاية للامعقول، وبعد أن قررت أن أوقف كل شيء؛ كل حوار بعقلي وكل شعور يريد أن يقفز بين الكلمات لصنع رسالة ليصل إليه، وبعد اكتفائي بقراءته لرسائلي فقط فوجئت بطلبه مني، وكان طلبه الأول والأخير والوحيد وهو أن أقابله، فخفت وترددت ولم أوافق على هذا المطلب خوفاً من الاقتراب، إن الاقتراب معضلة حياتي؛ فإنه يُنهي الحب بالتأكيد، فيعمل على هدم كل التوقعات الوردية للحب. وإن من المستحيل لمتحابان أن يظلا على حبهما إلى أن يصلا لسن الكبر أبداً، بل سيأتي عليهم ذلك العمر وكل منهم في وحدة بالتأكيد. فهناك شيء ما قد حدث في الطبيعة، فجعل الحب يتقاعس عن واجبة فجأة، فهوى الحب في سماء التخلي. وإن أردنا للحب أن يظل في أبهى صورة له فعلى الطرفين أن يبقى كل منهم في

حدوده، ولا يقف أحدهم على أعتاب الآخر أبداً. وأن يدورا في مدارين متباعدين لا يلتحما.

ورغم رفضي لمقابلته إلا أنني لم أستطع ان أمنع نفسي من الاستمرار في كتابة الرسائل المحبة له. فاستمرت كتاباتي له بأشهى الكلمات القادرة على تحويل قلب امبراطور متجبر إلى قلب شاب صغير يتسع للدنيا، قادراً على أن يحنو عليها. وبعد فترة أعاد طلبه باللقاء، فوافقت.

لم يكن لدي أي توقع عمّا يريد أن يقوله لي، ولا بأي أسلوب سيكون حواره معي. كنت خائفة من إلقاء اللوم عليّ، أو التهكم على تلك المرأة التي تراسله رغم أنها لا تعرفه، رغم ي يقينها أنها تكبره في العمر بأكثر من عقظ كامل، أو ربما يريد أن يطلب مني بلباقة عدم إرسال أي رسائل أخرى، أو يريد تفسيراً لسبب كل تلك الرسائل.

وأنا ليس لدي رد ولا تفسير لكل ذلك، ولا لدي إجابة لأي سؤال. كل ما في الأمر أن هناك شعور يتملكني بالرغبة في أن أُحدثه عن مشاعري وأن أراسله، ثم يهرب هذا الشعور ويختفي بعد مراسلتي له ويتركني في مواجهة شرسة مع نفسي، فيكون عليّ أن أتخيل رأيه عما كُتبت، وأن أتخيل رأيه وحُكمه عني أنا. فهناك خط غير ملحوظ بين الواقع والخيال يجعلهما متداخلان. فكيف سأشرح له كل ذلك؟! لا

أدري. ليتني أتخلى عن تلك المشاعر التي تُصيغ الرسائل ثم تختبئ ووتخلى عني، والتي تجعلني أواجه نتيجة أفعالها وحدي.

ورغم كل ذلك الخوف أنا سعيدة جداً لأني سوف أراه، وأن الواقع سوف يقابل الخيال، فليكن ما يكون. فإن عاملني بقسوة؛ فسيكون ذلك هو القول الفصل بنهاية هذا الحوار المُدار بداخلي، ونهاية حيرة لابد لها أن تتوقف. وإن عاملني بلين قلبه الذي أستشعره، فمن المؤكد أنه سيكون رحيماً معي ولن يقسو عليّ أبداً، وأنه سيطلب مني برفق وبلين أن أتوقف عن التعبير وكتابة رسائل أخرى، لأنه ربما يكون قد أقبل على الارتباط؛ فلا يريد أن يكون في حياته ما يُثير غضب وغيرة فتاته.

لا يمكنني توقع ما سيقوله لي، فأنا في موقف كان من المفروض ألّا أكون به على الإطلاق. فكيف لامرأة مثلي توافق على مواعدة شاب لا تعرف عنه شيء سوى القليل، حتى وإن كان خيالها قد تشبّع بمعلومات عنه. ولكني أدعو الله ألّا أصطدم بقسوة تسحق قلبي، وإن كان مستاءً مني فعليه أن يتمسك برقته التي أستشعرها فيه، ولا يلجأ معي للقسوة.

حتى أتى اليوم الذي حددناه للقاء، يوم بلون سماء صافية، احتفلت فيه بزيادة الأزرق، وتعطرت الشمس فجاءت أشعتها مُعطرة، فانتشرت الفراشات، وساد على الأرض سكون يبدو فيه كل شيء فيه ثابتاً، ولكنه في حقيقة الأمر يتحرك، لكنه يتحرك برقة غير معهودة ولا

مسبوقة ولن تتكرر. ارتديت ثوباً باللون السماوي الفاتح الذي ينتشر عليه زهور باللون الوردي، والذي ازداد فيه لون الورد فأصبح كلوحة يطفو فيها الورد على سطح بحر هادئ. ولم أضع المساحيق، فقد أردت أن أبدو طبيعية. لم أكن أريد أن أتجمل بشيء غير حقيقي.

كان مكاناً هادئاً، والصبح فيه محتفل بنا. جلست أمامه غير مصدقة أني أراه، رأيته إنساناً أو كما يجب أن يكون الإنسان. رقيق، مبتسم ابتسامته الرقيقة، ولكنها بمثابة طلقات نارية في صميم قلبي، وبمجرد أن جلسنا قال وبدون مقدمات:

- أتحبيني؟

صُدمت من جرأته، ولكني أمام حقيقة؛ فعلي أن أتعامل بصدق فقلت:

- نعم.

- وماذا بعد؟

- لم أطلب منك أن تبادلني أي شعور، حتى إن جلستي هذه معك ليست من حقي على الإطلاق، فأنا أكبرك بأعوام وأعوام، فلا تشعر بحرج، فليس عليك أي حرج، أنا من يقع عليه الحرج كله...

وقبل ان أُكمل عبارتي قاطعني:

- ولكني أصبحت، ولا أبالي فرق العمر.

بالطبع فرحت مما قاله لي في البداية، ولكني تمالكت نفسي وأفكاري، وتذكرت أن ذلك ليس من حقي أبداً، فحبه هذا أنا السبب به، فلولا رسائلي له ما كان لهذا الحب وجود، فقلت:

- أتدري؟ إني أرى نفسي في بعض الأوقات بحضن دافئ وقوي وآمن، وعندما أُدقق النظر فلا أجدك أنت، لست أنت صاحب هذا الاحتواء الآمن، لأني أُدرك أن ذلك ليس من حقي، وإنه لعبث إن حدث. وأن ذلك الحضن الدافئ مجرد حلم، ويجب على الحلم أن يبقى حلماً؛ فيظل الوهم على حاله. فليكن حباً استثنائياً، حباً يقع بين الواقع والخيال، لا يدري بأي منطقة هو. ففي قواعد العشق الأربعون، أحب بابا زمان شمس التبريزي كثيراً. أحبه نوعاً مختلفاً من الحب؛ وهو حب الجمال ورُقي الأثر. وهذا ما كنت أحاول التعبير عنه منذ أن أدركت روعة تأثيرك ورُقي وجمال حالك. هذا النوع من الحب ليس به أي رغبة سوي اقتباس رقي الأثر، الاطمئنان، الدعوات، النصح، الإرشاد من بعيد، فقط من بعيد، لأن هذا النوع من الحب لا يوجد به أي قرب يُذكر، لا يوجد به سوى تتبع الأثر، مثل بابا زمان الذي أحب شمس كثيراً، وبالرغم من ذلك تركه للرحيل. وحين جاء موعد الفراق بينهما وكان شمس علي طريق سفر أهداه بابا زمان صندوقاً مخملياً به ثلاثة أشياء هي: مرآة فضية، منديل حريري وقارورة زجاج فيها بلسم. وقال له. " ستساعدك هذه الأشياء في رحلتك. استخدمها عندما تحتاج إليها. فإذا فقدت الثقة بنفسك، ستريك

المرآة جمالك الداخلي، وإذا أحسست بأن سمعتك قد شابتها شائبة، سيُذكرك المنديل بشدة نقاء قلبك. أما البلسم، فإنه سيشفي جراحك، الداخلية والخارجية" وهكذا، ثمة إخلاص ورُقي وتقدير ونوع جديد من الحب لم يتولى أمره من قبل أحد من الشعراء والأدباء؛ فبدى لنا إنه غير موجود.

- لا أفهم كلامك، فكيف ذلك؟ ألا للمتحابين أن يبقوا معاً؟

- بالطبع لا، بعض الأوقات لا يجب أن يبقوا معاً. مثل حالي معك، ولا كنت أتمنى ولا أطمح ولا أحلم بذلك من الأساس. وأشعر بالذنب لسماع ذلك. فأنا أحبك؛ ولكني أود أن أزفك إلى فتاة جميلة تليق بجمالك، رقيقة كرقتك، واعية حتى لا ترهقك، تكون مرآة لك ترى فيها أفكارك مرتبة، تساعدك على حل ألغاز نفسك فتشعر بسلام، فتاة كلما اقتربت منها ازددت حياة، وكلما ابتعدت عنها اشتقت لها، فتاة عزيزة على الدنيا، ولكنها بين يديك ليست بعزيزة. وحينها سأكون تماماً مثل المحب الذي سعد لسعادة حبيبته في رواية الليالي البيضاء، فكم كان حاله أقرب لحالي! أستطيع أن أشعر بدقات قلبه المتسارعة حين ركضت حبيبته نحو حبيبها العائد بعد طول غياب، أستطيع أن أشعر بتضارب مشاعره ما بين كل شعور وعكسه، فلا يستطيع أن يسير مبتعداً، ولا يستطيع أن يقترب كي يتفوه بكلمات المباركة وتمني السعادة لهما، فاكتفى فقط بثبات جسمه متحملاً كل ما يمكن أن يطرحه أرضاً، ولكنه ظل ثابتاً. كل ذلك وأكثر؛ ولكن لا عليك ولا

تبالِ، فالأفراح إن أتتك أتت لي، وبمجرد أن تأتي يذهب الحزن عني كأنه لم يكن. أحبك لأفرح بنجاح تاق قلبك شوقاً له، وأرهقك طريقه. أحبك حباً لم يشعر به أحد من قبل، ولا أدري هل هو حب ممتلئ بالأمومة، أم حب امرأة تراك كل رجال الأرض؟! لا أدري، ولكني أحبك. ولأني أحبك فلا أرغب في أن أظلمك معي، ولا أن تظلمني ببحثك عن فتاة صغيرة بعد أن تكتشف أني لم أكن مناسبة لك على الإطلاق منذ البداية. فهذا أمر حدوثه أكيد. وأن أكون عروساً لك أرتدي فستاناً، وليس بالضرورة أن يكون الفستان الأبيض، فباقي الألوان كلها جميلة وأن تحملني بين ذراعيك وأن يسير أولادي خلفي فرحين لفرحتي، أكبر أحلامي.. بل هو حلمي الوحيد، ولكن الحلم يظل حلم، والوهم ما هو إلا وهم؛ يُسعدنا أحياناً، ويؤلمنا أحياناً أخرى.

- ولكن الحب انتماء، وأنا منذ أن رأيتك ورأيت وحدتك وحزنك وشعرت برسائلك وأنا أشعر بانتماء لكِ، أشعر أن كل مشاعرك ملكي، وهي ثروة نادرة. أنا أريد أن أقترب منكِ أكثر، أريد أن أحافظ عليكِ، وأن أُنسيكِ أشجانك السابقة.

- أرجوك لا تقل كلمة واحدة أخرى، فكل ذلك ليس من حقي. كنت أعلم أني أخطأت حين بدأت في التواصل معك، لم أتخيل قط أن أسمع منك هذا الكلام، بل كنت أنتظر العكس تماماً، أعلم أنك لن تبقى معي حتى النهاية، فلن أدعك تبدأ معي أبداً. ولأني غير جديرة بك،

فللشباب روح تنطفئ، وقد انطفأت بي، ففقدت القدرة على الإنارة، وعدم قدرتي على إنارة حياتك سيؤلمني، وسيدفعني إلى حزن شديد يجعلني بعمر آخر أكبر من عمري. أحبك ولكن هناك الكثير من الأشياء التي ترسم ملامح هذا الحب ليكون حباً استثنائياً. حباً عطاءه غريب، فلن تجد عندي ما سوف تجده عند فتاة في مثل عمرك، لن تجد شيئاً سوى الاقتراب من نهاية أشياء كثيرة، ولن أدعك تجرحني يوماً دون قصد، فأنا أعلم أنك حتماً ستجرحني دون قصد حين لا تجد ما تريده عندي. فلن أدع ذلك يحدث.

فكن ممتناً لهذا النوع من الحب. فمن الناس من يحتاج إلى إنسان يحبه، ومنهم من يحتاج أن يحب، ومنهم من يحتاج للاثنين معاً. فلتعتبرني إنساناً يحتاج إلى أن يُحب ولا يطمح في أن يكون محبوباً لأحد، أو أمّاً بديلة، أو صديقة توقظك وقت الغفلة، فتعطيك من خبرة هذا العمر، وأحياناً أخرى امرأة لا تعرف الكثير عن عالم الشباب فتساعدني.

- أخاف عليكِ من نفسي.

- كيف؟

- أخشى عليكِ من كسرة قلبك وحزنك وأنا مع أخرى، فكيف سأهنأ؟!

- بل اهنأ، فأنت تستحق الهناء وأكثر، واعلم أن جرحي في ذلك الوقت أهون من جرحي وأنا لا أستطيع إسعادك.

- أنتِ أجمل من رأيت.

- وأنت أجمل من رأيت، أنت لونت حياتي؛ بل وأبدعت في تناسق ألوانها، فأصبحت أحبها وأشتاق كل يوم إلى يوم جديد، أليس هذا كافياً؟!

- ماذا لو تزوجتِ؟

- كيف أتزوج وأنا أم لخمسة أولاد؟ وقد اقتربت من العقد السادس من عمري؟ والأهم من ذلك كيف أتزوج برجل وأنا أحب آخر؟!

- قلبي يتألم من أجلكِ.

- هذا يُثبت نظرتي لقلبك الجميل الذي لم أجد له مثيلاً من قبل، ولن أجد. لا تتألم؛ فأنا أريد لك السلامة والسلام وأدعو الله لذلك، وهذه غاية الحب الحقيقي، الذي إن وُجدَ لا يريد مقابل. فلتترك نفسك للحياة وفرحتها، ولا تعبأ بمن أخذ فرصته وانتهى، كن مخلصاً للفرصة التي سوف تُمنح لك، فإن الإخلاص هو أساس كل فعل، وإن خلى منه فسيكون هذا الفعل بمثابة مشهد بمسرحية جميلة أتقن المؤدون فيها أدوارهم. واعلم أن معي سوف تجد (غروبات) كثيرة، والقليل من (الشروقات)، وأنت تحتاج لشمس تنير لك طريقك الذي سيبدأ.

- سوف أدعو الله لكِ كي يقر عينك بما يسعدك.

- أليس هذا كافياً؟! لنذهب الآن، وليكن ما لدينا من مشاعر يجعلنا نسير في أفاق أخرى؛ تجعل منا شخوصاً أفضل لغيرنا، أنا لأولادي،

وأنت لفتاتك ثم لأولادك. فلكل منا مداره، ولا تتقابل كل المدارات دائماً.

- وداعاً، لكنك ستجدني داعمةً لك على الدوام. دعني آخذ صورة معك.

- وداعاً، أتمنى لكِ سعادة لا تنتهي.

سار كل منا في طريقه راضياً عن القرار الذي اتخذه، وقد شعرت بألم في قلبي حين تخيلت يوم إعلان ارتباطه بفتاة فعلاً، ولكني قلت لنفسي "أيها القلب الأبله؛ لا تطمع فيما هو بعيد عنك، ولتكن أحلامك على قدر استطاعتك وجدارتك بها".

عدت أُعلم نفسي هذا النوع من الحب الذي لا يتطلب أبداً أن نعيش في أجواء من نحب، بل يتطلب هجرها ونحن أقوياء وبمنتهى الرضا. وبدأت بتخيل أولاده يلعبون حولي، وأراه يهنأ بزوجته، وإن هذا بالفعل يرضيني. وقلت في نفسي: يكفيني أني ذات يوم أرسلت إلى عمري ابتسامة، هو ذات اليوم الذي اغترفت منه الفرح وعاد النبض، ولوّنت الأشكال وزال البهتان عن الأيام. كان سطوعه متأنياً حتى أنني لم أدرك وقتها أني أتعرض لشروق نادر لا يأتي بالضوء، بل يأتي بالحياة نفسها. إنسان بطعم الحياة. فإن دخلنا عالم أفكاره لوجدناها طيبة؛ يطيب ويسعد كل من فهمها، وإن تلمسنا شعوراً لديه اقشعرت أجسادنا من رقته؛ فبه نتيقن أننا لم نرَ قبله رقة قط. نرى كل شيء بعيونه رقيق، أو أن هذا الشيء مقتبس منه. نستنشق الهواء

عوضاً عن قربه؛ فهما بمثابة بعضهما البعض. ونتحدث للنجوم عوضاً عن حديث بات ممنوعاً. فكيف نتحدث لمصدر الرقة؟! وهل لنا أن نتحدث معه بكل شوائبنا؟! أخشى على نفسي من عذاب الضمير إن بدر مني ما يشقُّ عليه. فلم أمارس الرقة مثله، ولا مُورست عليّ. فهي عنده كلها، ولم يأخذ أحداً أبداً منها قسطاً مثله ولو بمقدار عقلة إصبع، وإن كان حدث، فلم أكن أنا، ولم أكن أنا من مُورست عليه. لا أعلم، هل أنا دخلت عالم الأحلام أم أن الواقع زُيّن وأصبح أجمل؟! تلك التفاصيل التي أسبح بها وأقفز بفرحة داخل أمواجها. جاءت إلى الواقع من ثقب إبرة، فاندفعت بخيالي بشدة؟! أم انفجرت مثل البركان فسحقت الواقع من حولي؟! فأصبح الواقع كسحابة من الدخان، وأصبحت أنا أركض مبتعدة عنه. من المؤكد أنه قد امتزج الواقع بالخيال، والأحلام وتأثرت بالأيام. فأصبحت مجنوناً لكنه عاقل. عاقل تماماً؛ يعلم أن لكل عالم منهم مقاييسه، وعليّ أن أعطي لكل منهم تلك المقاييس الصحيحة، ومن سوء حظي أنني هذا الشخص. من سوء حظي أني أنا من انشق قلبه نصفين مثلما انشق القمر، جزء يحتله الواقع والآخر للخيال. فأحببت الموت الذي لا يحبه أحد، لأن بالموت نذهب لحياة أخرى بها الخيال واقع، وهذا هو بالضبط ما أريد. هناك سأتطلع لعيون كانت ببعدها تُعد مغلقة، وهناك أستطيع أن أسير بجانب صاحب الظل الذي كنت أراه في خيال الدنيا. وحتى يأتي الموت ويأتي موعد اللقاء فيه، أنا هنا واقفة بين عالمين مختلفين في كل شيء، إلا من هذا العندليب الذي هجر موطنه

الأصلي، وأصبح بدلاً عنه وعيي وخيالي، فجعلني أعطي لعمري كل يوم ابتسامة منذ أن أتى".

دخلت غرفتي وأنا خائفة من غد، خائفة من أن ينقض عليّ الحزن، فلن أستطيع تحمل حزن جديد بعد أن برئت منه.

أخذت هاتفي كي أرى صورتي معه، وبمجرد أن نظرت بالهاتف ارتعبت...

أين هو لماذا أظهر وحدي؟!

هل كان حلماً وأنا لم أذهب لمقابلته؟

أم أنه هو نفسه حلم وليس بحقيقة؟

هل هذا الكيان يعيش بعيني وبأفكاري وغير متواجد من الأساس؟! وكيف يكون أجمل إنسان رأيته خيالاً؟ هل هو وهماً؟

كنت أعلم أني غير جديرة بمذاق السعادة ولا أستحق الحب، ولا أعلم حتى من يستحقه، وبماذا يتصف، ولكني علمت أن السعادة ليست في الحب، بل في الدفاع عن أنفسنا إذا ما أراد الحب أن يقتحمنا.

(19)

وأكرم الناس من يحيا بما وهما

اتصلت بي منزعجة جداً وخائفة، فذهبت إليها وروت لي كل ما حدث، وطلبت مني أن أنظر في هاتفها لأتفقد الرسائل؛ فلم أجد أي شيء، ولا حرف واحد مكتوب، ولا صورة لها مع أحد، كما أنها لا تمتلك ذلك الفستان السماوي الذي تسبح على سطحه الورود. فأخذتها بين ذراعي كي تهدأ انتفاضات جسدها. وبات الأمر مفهوماً، فقررت أن آخذها إلى مصحة نفسية.

كان كل شيء تراه وهماً، والشدة التي مرت بها، وحزنها الذي سكن بها أعواماً كثيرة دمرا وهدما بداخلها أشياء لم نتخيل أنها وصلت إلى ذلك الحد. ولكن الأمر أصبح واضحاً الآن. ذهبت فرحة بإرادتها إلى الخيال، ولكنه خذلها في وقت لم يُتقن فيه عمله، ولم يستطع ربط نفسه بالواقع، ما أدى إلى فقدانها الخيال لبرهة، وكان عليها أن تعود إلى الواقع، فصُدمت صدمة من الصعب تخيلها ومعالجتها. وأنه ليس هناك أي مكان آخر من الممكن أن يذهب ذهنها إليه سوى الواقع الذي كانت تهرب منه من الأساس. ربما تدرك مع الوقت أن الواقع كان دائم الترحاب بها، ولكنها لم تكن تراه لانشغالها بالأوهام.

كنت أتمنى لفرحة حياة واقعية جميلة مثلها، ولا تكتفي بالخيال والأوهام، والحقيقة أنه لم يكن خيالاً في المطلق، فقد كانت على يقين أنه حقيقة، رجل بكامل وجوده ولكنها لا يمكنها الاقتراب منه، ولا يمكنه أن يقترب منها، لذلك أخذته لأحلامها لتبتعد به عن ذلك الواقع الغريب، أخذته إلى بعد آخر من الواقع، وبعد آخر من الخيال. اكتفت أن تحب كياناً آمن ببعده. وإن اقترب فإنه سوف يتحول لصدمة مثلما تحولت حياتها كلها لصدمة بعد زواجها بسيف. رأته إنساناً جميلاً موجوداً في الأفق، وإن اقترب سيزول أي جمال تراه، وأي أمان تشعر به؛ فيبقى الأفق هو من يحميها منه. كأن هناك قانون للحياة لم يتوصل إليه أحد حتى الآن إلاها. لا تدري أتريده صديقاً أم تريده حبيب أم تريد التحرر من أي تعلق كان؟ لا تدري ماذا تريد. ولكنها تدرك جيداً، أن بعينها ترنو، وقلبها يخفق، وكيانها يذوب كلما ظهر هذا الألماس أمامها على هيئة رجل من البشر. وهي أمامه عقلة أصبع من امرأة، أو ذكرى امرأة. فهي لم تعد امرأة كاملة بعد أن غابت عنها نضارة الشباب، وقد ترهلت أجزاء من جسدها الذي كان ممشوقاً، شوّهه الإنجاب المتكرر، صار بعض الشيب بشعرها الأسود أو البني أو كلاهما معاً. أصبحت ذكرى امرأة تستعد أن تصبح شيخاً عجوزاً تتوزع بجسدها الدهون، وينتشر على وجهها تجاعيد السنين. سحقتها سنواتها الأربعون، وقبل أن تسحقها لقنتها درساً جعلت منها هذا الإنسان الجديد، كانت تجد الأمان بوجوده البعيد واستحالة الاقتراب، لم تكن تحبه كإنسان، بل كانت تحب

وجوده البعيد الملهم للاطمئنان، وكلما تخيلت قربه ينهار الأمان ويعود لها خوفها منه، كأنه وحش كاسر لابد لها أن تختبئ منه، ويعود انقباض قلبها. وأنا لا أدري ما هو العلاج الذي ستتلقاه كي تتمكن من التخلص من تلك الأوهام، ولا أدري؛ ربما ذلك الشاب سبقنا إلى المشفى لتكمل معه حياتها في العالم المنسوج بعالمها.

قد تربطنا بالحياة لحظة واحدة، ولكن يَحظُر علينا حتى أن نتذكرها وإن بُعثنا ألف مرة، لحظة لا يمكن أبداً أن تتكرر أو تستمر، فهي لحظة ومضت، ولكنها أخذتنا معها، فكيف لمن ولج روضة غنّاء أن يغادر؟ لحظة تأتي تعزلنا عن الخيال، تعيدنا حيث كنا، تطردنا من اللاشيء الذي عطف علينا بفتات وقته، ليصبح هو أيضاً أملاً مستحيلاً. ربما في لقاءها القادم معه يكون الوهم قد أتقن وجوده. بعد هذه المرة الذي لم يتقن فيها عمله، فانتبهت له وعلمت أنه يلهو بها كالدمية. كانت الحظة التي فقد فيها الوهم إتقانه ومهاراته؛ فكان القدر ينبهنا بها إلى حالة فرحة التي سقطت فريسة للأوهام. وكانت قصتها قد اكتملت، وأستطيع أن أرويها بتفاصيلها في بيت شعري واحد وهو **(وأكرمُ الناسِ من يحيا بما وَهِما).**

تمنيت لها السعادة أينما كانت، في الواقع أو في الخيال. ومادامت اختارت الخيال فلتهنأ به حتى يأذن الله بعودتها إلى واقعها، ماضيها وحاضرها، أولادها ومستقبلهم، ولي فأنا أخوها الذي يحبها حباً ليس كمثله حب.

ذهبت لأبي كي أروي له ما حدث، وحتى لا يتأذى لم أبالغ في الأمر، وجعلته يطمئن عليها، وأخبرته أن الأمر لن يستغرق سوى فترة بسيطة من العلاج، وإنها تعاني من شيء بسيط، ولكنه يحتاج لعلاج فوري حتى لا يتفاقم.

(20)

المعركة القادمة لي ولها

في ذكرى مطالبتي بسن دستور جديد يكون أبا الدساتير وأقومها، دستور ينمو تحت مظلته قوانين تُجرم مظاهر القسوة بأنواعها وأساليبها. قانون يسلب القوة الغاشمة من أيادي كل الطغاة الذين يعيشون بيننا متنكرين في هيئتنا.

ذكرى حزينة لم تصل لشيء ولن تصل، بعد أن رفضت المحكمة مطالبتي بإصدار بصيص الأمل لكل من ظُلم. وبعد مرور عدد من السنوات -لا يفيد معرفة عددها-، فبالأحرى معرفة عدد القضايا المجمدة في المحاكم وعدد المطالين بحقوقهم متوجهين للمحاكم ذهاباً وإياباً يومياً؛ دون الحصول على أي شيء من حقوقهم، ولا ينالون سوى استنفاذ طاقتهم وأموالهم وآمالهم. مفكراً بأنه لو كان لدى البشرية سر عظيم ولغز محير فلن يكون سوى تلك القوة الغريبة الغاشمة التي تجعل إنساناً يقسو ويقتل ويعذب ويقهر إنساناً آخر مثله، تلك هي المسألة، وذلك هو اللغز المحير الذي نقف أمامه عاجزين عن حله، وعاجزين حتى عن حمايتنا منه.

في تلك الذكرى ذهبت إلى المحكمة الدستورية العليا، وتذكرت ذلك الحشد في ذلك اليوم، اليوم الذي امتلأت الدنيا فيه بمطالبتي بسن

ذلك الدستور الأعلى والقوانين المُثلى لتجريم وعقوبة كل من يسلك سلوكاً قاسياً، والذي إن كان قُوبل بالموافقة، لبات الكثير في السجون، ولكانت الشوارع أصبحت خالية وغير مكتظة بالمارة، شاغرة فقط لمن لانت قلوبهم للأيام فكان حنانهم نصيب للبقية، فيا ترى كيف حال من كانت آماله مُعلقة على ذلك القانون كي يأخذ حقه؟! وهل أخذ حقه بطريقة ما؟! أم ما زالت الحقوق ضائعة تائهة ما بين قوانين موجودة ومحفوظة في كتب القانون في أمان؟!

وقفت أمام ذلك الصرح الجميل على ضفاف نهر النيل العظيم الخالد، الذي أعده المهندس المعماري على طراز معبد الأقصر، وزينه بأعمدة كأنها زهور لوتس شامخة، المبنى المليء بقاعات التداول والجلسات والمؤتمرات، محتلة أربعة أدوار على مسافة أربعة آلاف متر مربع. صرح جميل ولكنه بخيل، بخل علينا بالأمان والسكينة، وتركنا في أيادي القساة، الأيادي الغير أمينة على من تتولى أموره أو على الضعيف من الناس.

تيقنت أن ذلك هو قدرنا؛ أن تظل القسوة تحوم حولنا حتى تأتينا الرحمة من مكان ما، مثلما تسقط علينا أشعة الشمس بعد برد طويل، فتمتصها أجسادنا فرحة بها، وترتسم على وجوهنا ابتسامة كأننا نشكر الشمس على جهودها. وكذلك تمتص أجسادنا دفء لمسات من اختار أن يحنو علينا عندما تقسو علينا الأيام، ولا نستطيع أن ننسى من كان لنا الظل والنور والأمان والطريق المفتوح، فنختار أن

نتوقف عن إغراق وسائدنا بالدموع امتناناً له، وكي لا يذهب حنانه سُدى. ذلك الحنان الذي يُنسينا الماضي وإن وقفنا في شرفاته. ذلك الدفء الذي يجعلنا نرى الغد واضحاً أكثر مما وضح من الماضي. ولا يتبقى سوى أن تحمل أسماءنا معاني الفرحة حتى نُثبت للقدر أن لنا نصيب منه، وحتى يرتعب منا الحزن إن قرر أن يعود إلينا أو حتى يقترب؛ فبفرحتنا نقول له هيهات. هيهات أن يصل إلينا مهما كانت الأيادي القاسية أكثر بكثير من تلك الأيادي الرحيمة.

وبين حزن مبتعد وسعادة لا تعرف كيف تكون وكيف ترتسم؛ يعيش إنسان أو بالأدق يعود للحياة. إنسان يتنفس ليعيش وليس يعيش ليتنفس. وليس من المهم ولا الضروري أن يكون ذلك الدفء وتلك اللمسات حقيقية، بل المهم والضروري أنها وُجدت، وإن وُجدت في أثير أو خيال أو أطياف غير مرئية. وربما كان خلق الله للوهم بنفس أهمية خلق الأرض والشمس والنجوم والقمر، وأن لولا الخيال ما كانت الحقيقة، ولولا الوهم ما كان الحلم، ولولا الحلم ما كان لقسوة الحياة أي مخرج، ولولاه ما كان لنا أن نأمل بشيء، ولولا الأمل ما كان للأصباح أهمية، ما المانع أن يكون لكل منا حلماً بعيداً؟! حلم، مجرد حلم!

حلم يبدو لكل الدنيا أنه حلم مستحيل. ولكن هذا الحلم المستحيل قادراً على أن يجعلنا نستيقظ كل صباح راغبين في ذلك. حلم يجعلنا نعدو في الأيام عدواً مختلفاً لا يرى حقيقته أحد سوانا، حلم يجعلنا نمر

على صعوبات الحياة ركضاً مسرعاً ناجحاً كأننا نجحنا في ماراثون شاق. حلم يجعلنا نستشعر الجمال في كل شيء ونرى السيء أيضاً ولكن لا يستوقفنا. وإن تحقق هذا الحلم المستحيل؛ فليكن تحقيقه سبباً ودافعاً ليكون لدينا حلم آخر مستحيل.

وبين وهم وُلد في حقيقة، وحقيقة دُفنت في وهم عاشت فرحة. عاشت تخوض حرباً غير متكافئة مع واحد من ممثلي القسوة على الأرض، ورغم أنها خرجت من هذه الحرب منهزمة وضعيفة ومُحتلة بالكامل بالخيال، إلا أنها أثبتت أن هناك خلقاً على الأرض لا يسعنا إلا أن نسلط عليه الضوء ولا نُنقص من أهميتهم شيئاً، خلق بأهمية سطوع الشمس وغروبها، فنعيش الليل والنهار ونستطع حساب أيامنا وأعمارنا. ألا وهم (الوهم والخيال)، وأن بهم أقوام يعيشون ويموتون ونحن لا ننتبه. وإنه بدفئهما يمكن لإنسان أن يعبر طريق كان بمنتصفه عالق.

قصة حزينة بأكملها؛ ولكن اسم فرحة هو الوحيد الذي يحمل معنى الفرح، وكأنه ذلك الثقب الذي يتسلل منه النور. وإن تسلل شعاع رفيع من النور لزهرة وحيدة في حجرة مظلمة؛ فمن الممكن أن يجعلها تتفتح متجهة نحوه، نحو الشيء الوحيد الذي فهمها وشعر بها فأتى إليها.

وإني بت مقتنعاً أن بيننا أموات يمشون في الطرقات، ويجلسون معنا على موائد الطعام، ويبادلوننا الحديث، ويملؤون الطرقات

بالذهاب والإياب. فالموت أبداً ما كان توقف التنفس، الموت الحقيقي هو أن نكف عن الحياة نفسها فلا نراها حياة، وأن الشروق الذي يمثل البشرى بميلاد يوم جديد ما هو إلا إنذار بميلاد معاناة جديدة. فالموت والحياة ليسا أبداً كما كنا نفهم ونظن. ومن المؤكد أن العمر الحقيقي لا يبدأ من لحظة الولادة، ولا أدري من أي وقت يبدأ بالتحديد. فهل يبدأ من أول لحظة عذاب؟! أم من أول لحظة فرح قبل العذاب؟! أم من لحظة ظهور القمر مكتمل باستمرار، وإن كان النهار ما زال، وإن لم يأن أوانه؟! لحظة دوران قلبنا حول قلب آخر متلمساً منه النور والدفء واستشعار الحياة.

فلكل منا لحظة يبدأ بها العمر وحسابه؛ ليكون بعدها عمر جديد، سواءً بموت أو بحياة. وإن حياة الموت كالحة كليل بلا قمر لا ينتهي، وإن الحياة المنبثقة من موت سابق فيها الشمس والقمر في السماء، فلا ندري كم مضى وكم متبقي. ولا ندري كم عمرنا بالتحديد، ولا نتذكر كم مرة بُعثنا من جديد. وأن الحب إن ظهر بحياتنا غيّرها، مثلما تغيرت صفية من أجل أحمد وحلمها معه، ومثلما تغير أحمد من أجل صفية ومن أجل ينالها، ومثل ما تبدل حال فرحة حينما أحبت ذلك الشاب المقيم بخيالها، والذي كلما مر يوم ابتعدت عن عمره أكثر وهو بعمره لا يقترب، وإن طرحت من عمرها فيظل عمرها خلفها مهما تخيلت ومهما تراءى لها. أدركت كل ذلك عندما قرأت الأفكار المحتبسة بتفكيرها، والحوارات التي تجري داخل أسوار كيانها،

كلمات في قصاصات الورق التي كتبتها وتركتها في مكان عزلتها؛ فقرأت وشعرت وبكيت:

"وبكلمة بسيطة أقولك

عن اللي اتولد من غير صراخ

عن اللي خلى الخيال خلق المواعيد وسبقها

وعن الموت كل شوية

عن الحياة اللي مش مفهومة

والشوق اللي مالوش نهاية

والآهات اللي مش متقالة

بكلمة بسيطة أقولك

عن اللي محظور يتقال

عن أحداث خلف الستار

أو أسطورة منسية

أو خيال علم الحقيقة تحن

وأوصف لك مكان السور

إللى وراه ألف حلم وحلم

ومليون أمنية منهية

بكلمة بسيطة أقولك

عن الحنان المحبوس

والأيد إللي كتفها السر ونسيها

عن روح بتروح لحد عندك

وترجع من غير ما ترجع

عن عمر عمال يعدي

وهو بيعدي زرع زرعة

ضللت على إللي عاش فيا

غرور مكسور وروح غرقانة

غرقانة في لحظة عدت

وكلمة مرت وحنين كبر قبل أوانه

بكلمة بسيطة أقولك

أنت شمس موجودة جوايا

ونجم نوره أشد من شمسه

وأرض تايه انا فيها

وبحر أمواجه بتسحب العوام

وأنا الغرقان

بكلمة بسيطة أقولك

كل الأبواب اتقفلت

واتفتحت مسالك تانية

مرة أقول الشعر

ومرة أرسم طلة

ومرة أبكي

وكم مرة بكيت

ومرة لاقيتك

بس الزمان خباها

وبقت ولا مرة

بكلمة بسيطة أقولك

إني بحبك

بس أتاري صوت العمر أقوى

فماسمعتش".

وقصاصة أخرى:

"أيها الحلم الذي يأخذني كل يوم إلى عالم الحنان، والذي عرفت من خلاله ماذا يكون ملمسه، والذي أنتظره في كل شروق وأستسلم

لغروبه. أعلم أنك مجرد حلم، وللأحلام طبيعة نعرفها؛ فهي تظل تلعب هنا وهناك وتختبئ منا هنا وهناك، فلا نراها إلا قليلاً. وأنت الحلم الذي يلهو مع أيامي، فغب كما شئت، يكفيني أني رأيتك وأنا لا أطمع أكثر. ولكن ينقصني صوتك فلا تبخل بأن تنادي باسمي مرة أخرى في لقاءنا في الحلم القادم، بعد أن سمعته منك في الحلم الماضي".

وأخرى:

"لم يكن القمر موجوداً، ولا الشمس

ولم يكن للأيام سنوات، ولا عمر

حتى أتى القمر

وبزغت الشمس وبدأت الأيام والسنوات

وفُتحت النوافذ

ورويت الأشجار بالأمطار

وابتلت الأرض

أتى مبتسماً

فابتسمت

وابتسمت تلك التي بزغت

والأشجار التي رُويت

والأرض المبتلة أنبتت

أنبتت من كل نوع زهرة

زهرته الصفراء

وهل نرى ابتسام الفراشات

ولكنها ابتسمت

ولبس الحزن وشاحه ومضى

بعد أن عبأ كل ملامحه

في حقيبة سوداء واهنة

وهن كما وهنه

كأنهما شيخان

يستندان بعضهما بعضَ

ولفه ظلامه كلما ابتعد

وكلما ابتعد

نور وفد

كوفود مهاجر

تاركاً أرضه بلا رجعة

ولكنه أعاد وضع أقدامه

على أرضه

أرضه التي لم تكن قط تنتظر

إشراق نور

ولا قدوم قمر

ولكن أبت منازل القمر

أن تعتزل".

قصاصات، مجرد قصاصات ورق، والتي كان من الممكن أن تضيع بسهولة وسط قصاصات كل يوم، إننا من الممكن أن نكتب روايات من أجل شخص واحد، شخص واحد فقط موجود وسط شخصيات الحقيقة وشخصيات الروايات؛ شخص واحد فقط حقيقي وإن كان طيف أو خيال.

قال الشاعر الحبيب تميم البرغوثي في قصيدته الحبيبة (كم أظهر العشق) **"وأكرم الناس من يحيا بما وهما".** وكان صادقاً، وقد كان ما كتب.

أدركت أن مشاعر الإنسان تتغير بالتدريج إلا الحب؛ فالحب يأتي فجأة، ويبدأ بإرهاق القلب كأنه يصدمه بارتجاجات عنيفة متتالية. الحب يفعل بالجسم عملية جراحية يجعله أكثر رشاقة، وبالمخ إعادة تشكيل للمؤشرات العصبية. الحب قادر علي هدم مدن كاملة من

الذكريات وبناء مدناً جديدة. وأن من يحب يقف على أعتاب كيانه، ذاهباً إلى كيانٍ آخر.

فما هذا الشعور الذي يجعلنا نحيا في عالم آخر هواءه غير ما نتنفس وطرقاته مختلفة عما نسير؟!

كيف له أن يجعلنا نخاف من بداية يوم جديد أو نولد من جديد في كل يوم؟!

ما هذا الشعور القادر علي تحويل الفشل لنجاح والنجاح لفشل؟!

هل هذا سحر من الجن أم كيمياء تحدث في أجسامنا أم خيالات نعيشها بأذهاننا؟!

هل هو التضحية كما تعودنا على وصفها منذ الصغر من أبوينا رمزيْ التضحية والحب؟!

أم هو الأنانية والامتلاك، أم هو تمني الحرية لمن نحب؟!

هل هو صراع أم بيت آمن؟!

الجنة هو أم النار؟!

نجح الإنسان في حل طلاسم العلوم المختلفة. ولم يستطع حتى وضع تعريف واحد صائب للحب قط. وبعد وضع أكثر من مائة إجابة عن ماهية الإحساس بالحب؛ فمن الممكن أن نقول إن الحب هو الرغبة في اكتشاف أنفسنا ونحن بجانب شخص آخر نراه أجمل مَن

رأينا، فنصاب بارتفاع شديد في الشعور بالجنون، وانخفاض في القدرة على التعقل. وكأن ذلك الشعور الغريب الذي آلفناه ما هو إلا مغامرة من مغامرات الإنسان، ولكنها مغامرة تقوم بها المشاعر وحدها دون حماية كافية من باقي قدرات الإنسان، لارتفاع نسبة الجنون وانخفاض قدرته على التعقل، كما أن التعلق يجعل منا أداة تعمل بكفاءة من دون أن نُعيد التفكير. فالحب في المحصلة مغامرة إما نعود منها سالمين أو لا نعود من الأساس، أو نعود أشباه ما كنا عليه قبل القيام بها. فيكون لدينا ذكريات ما قبل المغامرة، وذكريات المغامرة نفسها، فنتوه فيهم غير مدركين إلى أي اتجاه من الممكن أن نستعيد فيه حياتنا الماضية ولا كيفية البدء من جديد.

الحب تعاسة بالتأكيد؛ وإن بدى غير ذلك، الحب تعاسة حتى وإن بدى كأنه نور شديد وجميل، ولكن من شدة ذلك الضوء نفقد أبصارنا، ونصير رغم الضوء عمياناً، فما فائدته إذاً؟!

فتلك المغامرة المضيئة سبيل غير آمن. وأن الأمان في اللاشيء أو رؤية الجمال في الأشياء وليس في الأشخاص. وإن الشيء إن اختفى لأي سبب كان؛ يمكن استبداله، لكن الروح تبقى فينا، ولا يمكن أبداً طردها منا أو استبدالها. ولأن جمال الإنسان في روحه؛ فعلينا ألا نقترب من أي جمال يتنفس. فالأفضل أن نذهب إلى أي جمال آخر لا يمتلك روحاً ولا يتنفس؛ كي نألف الحياة به ومعه، ليعود إلينا الشعور بالأمان وينطفئ فينا الشعور بالرغبة في المغامرة.

فالحب ليس مجازاً عن السعادة، والسعادة ليست مجازاً له، بل من الممكن أن نقول إن الحب مجاز عن المعاناة. فلماذا نترك أنفسنا للمعاناة وأمامنا الراحة والاطمئنان؟! فعندما أحبت فرحة سيف وتزوجته كان الحب هو النفق المظلم، المغلق من الجانبين، والذي أدى بها إلى رؤية الغضب والشراسة والقسوة، والتمادي فيهم؛ إلى أن وصلوا لأطفال ليس لهم من الأمر شيء.

إن مجتمع الحب هو باقي المشاعر التي تحمل الأسى في معناها؛ فهو محاط بهم ولا يستطيع أن يهرب مهاجراً بعيداً.

الحب هو الرغبة في المغامرة التي تجلب الأسى والألم، هو المسار الصعب، هو المعنى المستعصي عن الفهم، وهذه هي الحقيقة فلماذا نتغافل طول الوقت؟!

ولكن لكل قاعدة استثناء، فعندما أنظر لأبي وأمي وأجد أنه بعد أن مرت بهما سنوات الحياة، وكانت الدنيا صغيرة معهما وكبرت معهما، أرى سعادة وأمل في أعينهما، لم أرَ هما في صغرهما بمثل هذا الوضوح، عكس ما كنت أظن. كنت أظن أن اقتراب النهاية يُخيف، والكبر يُغضبنا. ولكني رأيت أبسط الأشياء تُسعدهما، وأن الرضا سهل المنال. وما زال أبي يرضيها وما زالت تُسعده، وما زال الافتقاد موجود بينهما.

يبدو أن هناك شيء ساحر بينهما لا نفهمه، وأن السير عكس الاتجاه -عكس ما نحب أن نكون- وأن تتداوى كل جروحنا أمران

متضادان، وليس بتضاد اليل والنهار اللذيْن يتداخلان مع بعضهما البعض، ومن بينهما لحظات تسكننا ونسكنها، بل هما متضادين بتضاد الموت والحياة. وما بين الموت والحياة نعيش.

عندما أتدبر الحكمة من خلق القسوة بين الناس؛ لا أصل لشيء سوي أن نفهم أهمية الرقة واللين وكي نختار مكان وجودهما. ولكن ماذا إن أخطأنا الاختيار؟!

سؤال لا يوجد له إجابة سوى الأحداث التالية للاختيار.

وإني عندما أتذكر رقة ولين جدي أقف منبهراً لذلك القلب الفريد، الذي لا يتكرر إلا كل مائة عام. وعندما أتدبر حال فرحة أقف منبهراً أيضاً لعقل رفض توثيق القسوة في تاريخ الأرض والاعتراف بها، فصنعت بديلاً مضاداً لها كي تُقر به وتوثقه فلا يُلوث فكرها، كالذي ينآى بنفسه عن فعل الحرام والخطيئة. ولا أستطيع أن أقول إن تلك القلوب خالية من الحزن والعذاب، بل إنها حزينة ومعذبة، ولكن يكفيها أنها لم تنصاع خلف القسوة ولم تتلطخ بدنس القسوة مهما حدث. وكأننا نكون مدينين بالحب تجاه من يساعدونا في التغلب على مصاعب الحياة، ونكون ماهرين لو استطعنا كراهية من كانوا هم صعوبة الحياة.

******

بعض القلوب كالحجارة تحتاج إلى معولٍ لتحطيمها.

@عيسى بن مريم

@د. أيمن العتوم

قلوب كالحجارة مثل قلوب من قتلوا أحمد، وقتلوا حلمه وشهامته؛ كما قتلوا خالتي صفية، نعم هم من قتلوها ولم تقتل نفسها بنفسها. فلولا قتلهم لأحمد ما قتلت نفسها. فبتلك القسوة على أحمد قست هي على نفسها. وكما ذُبح شنقت هي نفسها. وكأنها قدمت نفسها دية له، أو اختل عقلها فأخذت القصاص من نفسها.

وكان حلمي بسن قانون يجرم القسوة ما صغر منها قبل أن يصير فتياً. هو الطريق المنير والواضح للحد من تلك الأمور والقضاء عليها، ولكن الإنسان دائماً عاجز عن تحقيق الأشياء البديهية، ولكنه متفانٍ فيما يبدو مستحيلاً. فبالرغم من صُنع إنسان بديل صناعي يحل محل الإنسان نفسه، إلا أنه يفشل في تقويم فطرة الإنسان التي تعبث بها الفتن والأيام. ولا أدري لو كانت المحكمة وافقت فربما ظل كل أب ببيته يحمي أولاده برفق وحنان بدلاً من تركه لهم راكضاً خلف أحلامه كما فعل سيف.

قانون للأجيال القادمة، أجيال خالية من نوازع الشر والقسوة، أجيال تقرأ في التاريخ عن أفعالنا فلا تستطيع أن تفهم ولا تتخيل ما فعلناه، وكأنه طلاسم مشفرة تحتاج لفك شفراتها. أجيال لا تعلم غير اللين في قلوبها وأفكارها وأحلامها. فتستطيع أن تكون هي الجديرة بتمثيل الإنسانية، بعدما شوهناها نحن بمصائب تقشعر لها الأبدان

وتدمع لها الأعين. أجيال لا تعرف الجبن أبداً كما عرفناه نحن على يد هؤلاء الفسدة المفسدين للفطرة وللإنسانية.

أسير الآن بين أحداث مضت وأحداث مقبل عليها، بين فقدان أحبة وبين الحفاظ على البقية، أسير بين كل شيء وعكسه، وتلك هي سنة الحياة الحقيقية، هي أن يسير الإنسان دائماً في مفترق طرق، حتى يختار طريقه فيُحاسب على أي طريق قد اختار. وها أنا أختار تلك الطرق التي تؤدي إلى كوني إنسان وليس كائن يشبهه.

أستطيع أن أشعر بفرحة حين وجدت نفسها على سلم عال وفجأة انقطع السلم من تحت قدميها ليظهر فراغ سحيق، وأُنتزع من يديها كل عون كي تحافظ على ثباتها فلا تسقط في ذلك الفراغ السحيق. ولولا أيادي أبي وأمي أتت كي تنقذها؛ لكانت فرحة سقطت في ذلك الفراغ المظلم والسحيق والمخيف من دون رجعة. ذلك الحلم كان مرآة لواقع عاشته بكامل كيانها وسنوات عمرها، كان ذلك الحلم رؤية مثل رؤية يوسف المحققة، ولكن رؤية فرحة جاءت متأخرة. لم تعش أختي قط حلماً جميل بعد حلمها الزائف بسيف، فأدركت أن من يعيش في حلم جميل؛ فعليه ألا يتمنى انتهاء الحلم؛ ظناً منه بجمال النهاية، فالنهاية ربما لن تكون أبداً كما يظن.

لم تظهر يداي في حلم أختي، ولكنها ستظهر في الواقع، ولن أتركها حتى تستعيد فرحتها الضائعة من أيام سارقة ومحتالة، سرقتها واختبأت بين طيات ذكرياتها، ولن أتركها حتى تنتصر في معركتها

القادمة مع عقلها الرافض للواقع حتى يُقر بأن الواقع الحزين موجود، ولكن علينا ألا ننجرف فيه، بل علينا أن نتشبث بكل بصيص أمل وبكل لحظة سعادة، وأن علينا أن نُقاتل الحزن والوهم بكل إرادة وبسالة. لا ينبغي لها أن تترك نفسها للخيال وللأوهام، لأنها بذلك تصنع شخصية أخرى مضافة إليها، ولكنها مخادعة وليس لها أمان، شخصية تجعلها تشعر بسعادة زائفة وأمل متراخٍ ونظرة للمستقبل مُضللة.

أحاول أن أفهم مدى قوة الإنسان على مواجهة نفسه والحياة، فهناك من لجأ للخيال، وهناك من لجأ للسحر، وهناك من خارت قواه فانتحر، وهناك من عزل نفسه عن معظم الدنيا واختار منها النادر فقط. ولكن أين قوتي أنا؟ وما شكلها؟ فهل استمدها من أبي؟! أم من فرحة؟!

وإن كنت مكان أي منهما ماذا كنت سأفعل؟!

هل أنا ضعيف وليس لي أي قوة تُذكر لذلك طالبت بهذه القوانين كي تحميني؟!

أم أن مطالبتي دليل قوتي؟!

أستطيع أن أقول إن قوة الإنسان هي قدرته على صُنع ذكريات جميلة مع والديه وأولاده وأحفاده تتخللها مبادئ الأخلاق والإنسانية تماماً كما فعل جدي معنا، وهذا معناه أن من ترك عصبته وذهب

رافضاً صُنع تلك الذكريات التي تتخللها الرسالة التي سوف يتركها بعد رحيله لتقرأها عصبته على من يمر بحياتهم، إنسان ضعيف بالمعنى الحقيقي للكلمة.

بتلك المسيرة يكون لنا مكان في الحياة، المكان الذي نستنفذ كل قوتنا لصنعه، ومن لا يدرك ذلك مهما بلغ من قوة؛ هو الضعيف بالتأكيد، وهذه معركتي.

(٢١)

ارسم شعاراً لِما في قلبك

ليس من حق الآباء أن يأخذوا فرصة ثانية لأنفسهم في الحياة إلا إن كانت في صالح أولادهم، وإن كانت الفرصة بعيدة عن أولادهم وليست في صالحهم فلن تكون من حق الآباء من الأساس، ويكون ذلك في منزلة ارتكاب جريمة سرقة يُستوجب عليها المحاكمة.
فالآباء لديهم كل الفرص كي يعودوا أطفالاً مع أطفالهم، لديهم الفرصة أن يتمتعوا بالشباب مرة أخرى مع أولادهم، كل الفرص للفرح والمرح والانطلاق مع أولادهم. قادرين على أن يعودوا لشعور الفشل ويسعدوا بالنجاح مع كل إخفاق ومع كل نجاح معهم، فالآباء يعيشون أكثر من حياتهم، فكم طفولة من حقهم؟! وكم اقتراب من مرحلة الشباب في انتظارهم؟! كم من أفراح وكم من حياة تنتظرنا نحن الآباء؟! فبعد مرور خمس سنوات عادت فرحة إلى بيتنا، وقد أعانها الله ورمّم حزنها، لا أستطيع أن أقول إنها شُفيت تماماً؛ فمازالت تعاني من التوتر والاكتئاب، ولكنها لم تعد تتحدث عن أشخاص وجودهم أمامها غير حقيقي وغير مُبرر، فالطلاق يُنهي حياة ويأتي بالأخرى، الطلاق ممر بين كل شعورين متضادين، الطلاق قرار له صدى؛ يتردد في آذان من لم يسمعوا بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير بإخلاص. وشهادة ميلاد ثانية لهم. إن الطلاق في بعض الحالات أمر حتمي ولكن كان من الممكن

أن يكون أمراً مستحيلاً، فقط إن أراد كل من الطرفين ذلك. فأدركت وأيقنت أن من يسبق بالعمر فإنه حتماً يسبق بشيء ما، فليس كل الخبرات تُقال. وأن من سبق بالشعور فقد سبق فعلاً، أما من سبق بفكرة فليس له السبق في شيء، فالأفكار تولد ثم تُنفذ أو تتطاير ولكن الشعور يظل، يَثبُت، تمتد جذوره في روحه، فإن استشعرناه وأدركناه ربما لا نعود كما كنا قبل أن ندركه. فصفية سبقت حياة، وفرحة سبقتني، وكلاهما سبقانا إلى شعور بالعذاب، ولم نعد كما كنا بمجرد أن اقتربنا منه. فالحذر كل الحذر من أن ندفع غيرنا إلى أن يكون الأول في شعور مؤلم لم نكن نعلم عنه شيئاً، أو كنا نعلم أنه موجود ولكننا لم نكن قد اقتربنا من اعتابه. فنحن لا نعيش على أرض ضمن النظام الكوني وكفى، نحن نعيش في أرض أخرى موازية لتلك الأرض، ليست ضمن النظام الكوني الذي نعرفه. فهي موجودة في نظام كوني بقوانين مختلفة مذكورة ضمن دستور مُعلن ولكننا ننأى بأنفسنا بعيداً عنه. دستور غير متبع بضمير كل منا فلا نشعر باللين المرجو منا. دستور قوانينه موجودة على مرمى بصر كل منا، فقط إن أرادنا أن ننظر. قوانينه تتردد في آذاننا ولكننا لا ننصت. ليتنا نشعر ونبصر وننصت.

أنا تزوجت من جارتي عليا التي اختارتها أمي لي، ووهب الله لي آدم. وفي يوم من أيام إجازتي عن عملي ذهبت أنا بدلاً من زوجتي إلى المكتبة التي يتعلم بها آدم الرسم، وتأملت السنوات الماضية

وأحداثها، فتنبهت أنه لا يوجد ممر آمن بعد ما ممرنا به، ولا يوجد سهل أخضر كما قال لي خيالي ذات يوم، ولا يوجد نهر واسع يكفي الآلام إن ألقيناها فيه. إن ضباب الأمل حجب الرؤية، ولا يوجد شيء أرنو إليه؛ فعلي أن لا أُدقق النظر. ويبدو أن الرقة واللين لن ينتصرا على ملامح القسوة العابسة أبداً، تلك القسوة الضحوكة أحياناً والخبيثة طوال الوقت، ولكن وسط كل ذلك الأسى نجدهم هناك في مكان ما، من يزرعون نظرة نادرة للحياة، هؤلاء من يسيرون على الأرض بقلب لين، يحبون، ويعطون. لا يملكون قوة سوى الحب والعطاء. وبامتلاكهم تلك الثروات النادرة يكونون هم الأغنياء. وبينما يظن من قسى وبغى أنه أغنى وأقوى، ولكنه بائس ومحطم في لحظة لا محالة إن أراد الله زوال نعمته، فبالعطاء تدوم النعم وبالحمد تزداد. بمرور السنوت أصبح لدىَّ أدم، وينعم الجد والجدة بحفيدهما الصغير آدم باسم جدي (آدم باسم إبراهيم آدم) وسط أولاد فرحة، وتعيش فرحة وسط أمها وأولادها في تناغم وصحبة، وانتهى عذابها برضى كامل عن مفارقة حب وتركه في الخيال كما وجدته، ومسامحة سيف الذي أصبح مرة أُخرى جزءاً من العائلة بصفته والد أولادها فقط، ولا يمكن أن يكون أكثر من ذلك، ويشكر آدم ربه على ابتسامتهم ويدعو الله أن تدوم.

يجلس آدم بين أصدقائه في ورشة تعليم الرسم للصغار، تقول لهم المعلمة "كل واحد منكم يرسم الشيء الذي يشغل باله، يرسم الشيء اللي يحبه أو الذي يكرهه".

تنادي مدرسة الرسم: آدم، يونس، ويحي، كل واحد يرسم ما بخاطره. فرأيت آدم قد رسم قلوب بيضاء بأجنحة عملاقة في سماء صافية كأنها سُحباً، وكأنها تُشير إلى الأرض وتقول للبشر "انتبهوا، انتبهوا جميعاً لواجبكم تجاه أنفسكم وتجاه غيركم، لتجعلوا أرضكم بسمات السماء الصافية المعطاءة، حتى تنالوا الرحمة عندما تصعدوا الى السماء".

أما يونس فقد رسم صحراء بكل الصفحة، وبها ثعبان كبير يملأ كل مساحة الصحراء، لا أخفي عليكم قد أخافني ما رسم.

ولا ننسى يحي الذي رسم زهرة وكتب عليها أمي، أتتذكرون يونس ويحي؛ الولدان الصغيران اللذان كانوا مع السيدتين الحزينتين يوم التجمهر؟ الآن يرسمان على الصفحات حياة بلا واقع، أو وربما يكون هو الواقع نفسه.

انتهت

٢٠٢٥-١٠-٣٠

ادخل شوف معاناة ساكته

واسمع كل اللي بيتقال

في الأول مش هتسمع حاجة مع إنه عمال يتقال

بس في الآخر هتحس وهتسمع وهتعرف ان ماكنش لازم نسمع أصلاً

وأن كل حاجة كانت واضحة

إحنا اللي ما كناش عايزين ندخل من الأول

لأننا حاسين وشايفين وسامعين بس كنا محتاحين نفضل بره

يمكن علشان مش قادرين نغير حاجة

ويمكن علشان خايفين

خايفين نشوف جزء بيموت منا فنكون قادرين نشوف ونسمع بس

وإن إحساسنا هو اللي بيموت في كل مرة.

لمتابعة الكاتب سمر سيد على الفيسبوك:

/https://www.facebook.com/share/16nx4AHJvR

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023

@جميع حقوق النشر محفوظة ل

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

٠١١١٣٣٥٧٤٧٣